

كلية الآداب و اللغات
قسم اللغة العربية وآدابها

أطروحة مقدمة لنيل درجة دكتوراه الطور الثالث

التخصص: أدب المغرب الإسلامي والحضارة المتوسطية

العنوان:

التواصل المعرفي بين أوروبا والمغرب الإسلامي في القرنين السادس والسابع الهجريين . ابن عربي أنموذجا .

إعداد الطالب: سيدأحمد نايري

إشراف: أ.د بومدين كروم

أعضاء لجنة المناقشة:

أ.د محمد مرتاض	أستاذ التعليم العالي	جامعة تلمسان	رئيسا
أ.د بومدين كروم	أستاذ التعليم العالي	جامعة تلمسان	مشرفا ومقررا
أ.د محمد بن عمر	أستاذ التعليم العالي	جامعة تلمسان	عضوا
أ.د محمد باقي	أستاذ التعليم العالي	جامعة سيدي بلعباس	عضوا
د. آمنة بن منصور	أستاذة محاضرة "أ"	المركز الجامعي عين تموشنت	عضوا

السنة الجامعية 1439/1438هـ . 2017/ 2018 م


بسم الله الرحمن الرحيم



كلمة شكر وتقدير

إلهي لا يطيب الليل إلّا بشكرك ولا يطيب النهار إلّا بطاعتك وذكرك.

الحمد لله الذي بنعمته وجلاله تتم الصالحات، والصلاة والسلام على نبي الرحمة ونور العالمين سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم.

عرفانا بالجميل أتقدم بوافر الشكر وعظيم الامتنان إلى أستاذي الجليل وشيخي الفاضل الدكتور" **بومدين كروم** " الذي قام بالإشراف على هذا البحث وتعهّده بالرعاية العلمية، فكان لي نعم القدوة بفضل توجيهاته وتشجيعاته، وكذا بفضل إخلاصه وتواضعه في المعاملة، وهو الذي لم يدخر جهدا في تقويم عملي هذا.

وأدعو العلي القدير بكلماته التامات وأسمائه الحسنى وصفاته العلى أن يمنّ عليه بوافر الصحّة والعافية، وأن يصبغ عليه نعمه ويبارك في عمره.

كما أتقدم بأسمى عبارات الشكر والتقدير إلى جميع أعضاء لجنة المناقشة على تجشمهم عناء قراءة وتقويم هذا البحث، كما أعبّر عن كامل امتناني لكل الذين ساعدوني في إنجاز هذا العمل المتواضع من أساتذة وباحثين وكذا القائمين على المكتبات.



إ ه ـــــــــ د ا ء

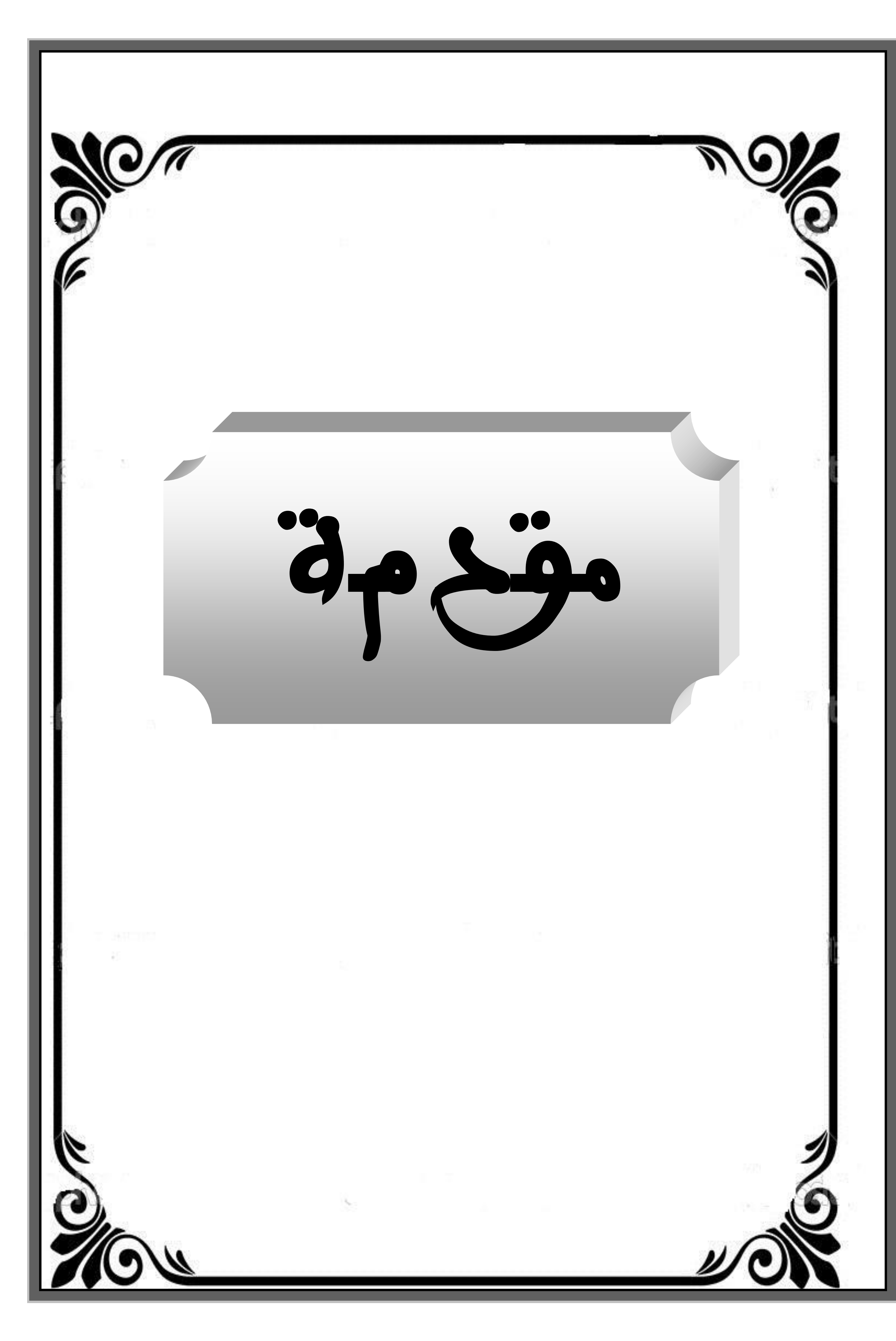
أهدي عملي هذا إلى :

- ينبوع الصبر والتفاؤل...

سندي وقوتي بعد الله ـ عزّوجلّ ـ
"والدتي" الغالية ـ حفظها الله ـ

- روح والدي ـ رحمه الله وأسكنه فسيح جنانه ـ
-
- وإلى كلّ من علّمني حرفا... أهدي ثمرة هذا العمل.

سيدأحمد


مقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على أشرف الخلق محمد وعلى آله وصحبه، وبعد:

التواصل المعرفي هو تبادل المعارف والعلوم، تحاورا وتعارفا وتلاقحا، ويعدّ التواصل المعرفي بين الشعوب من الظواهر الإيجابية المهمّة التي كان لها دورٌ فاعل في تطور الفكر الإنساني وإشاعة الثقافة العالمية، وهو يمثل التأثر والتأثير بين الحضارات.

وعندما نتحدث عن التواصل المعرفي هنا نخص بالذّكر التواصل الأدبي والفكري بين أوروبا والمغرب الإسلامي في العصر الوسيط، ولن نجد مثالا أروع من الحضارة الإسلامية في الأندلس، التي كانت جسرا للتواصل بين الثقافتين العربية والغربية، مع العلم أنّ طبيعة هذه الحضارة كانت بوتقة انصهرت فيها عقليات شتى وثمرات ثقافات متباينة، فكانت مشتركا وسيطا بين أوروبا والمغرب الإسلامي.

وهذا ما شدّ انتباهي، وجعلني أفكر في البحث عن أسرار هذا التواصل وخباياه، ودوره في زيادة النشاط العلمي بصورة سريعة ومتنامية في شتى فروع المعرفة، وبخاصة في المجال الفكري الذي انعكس إيجابا على الحياة الأوروبية فيما بعد، فأثمرت الرحلات العلمية وامتلأت الأندلس بآلاف الكتب والمصنفات في مختلف التخصصات العلمية.

ومن هنا استقر لديَّ أن تكون وجهتي صوب موضوع: **"التواصل المعرفي (الأدبي والفكري) بين أوروبا والمغرب الإسلامي في القرنين السادس والسابع الهجريين –ابن عربي أنموذجا–** "، وذلك قصد إبراز التميز والنضج الذي أنتجه هذا التواصل بين دول المتوسط، وتألق بعض العلماء الأندلسيين في العلوم، إبداعا ونقدا، وهي ظاهرة تدل على نمو الشخصية العلمية

والأندلسية والمغربية وتحققها، وفي المقابل هناك تأثر بالإنتاج الفكري الإسلامي في أوروبا، اتباعا واستثمارا وإبداعا.

وما شجعني أيضا على المضي في هذا الاتجاه هو ما اطلعت عليه من خلال الجهود المبذولة في هذا المجال، ومن بين هذه الدراسات ما قام به محمد فاروق أحمد الإمام في كتابه "معابر الحضارة الإسلامية إلى أوروبا"، وسعيد عبد الفتاح عاشور في كتابه "حضارة ونظم أوروبا في العصور الوسطى"، ورحيم جبر أحمد الحسناوي في كتابه "المناظرات اللغوية والأدبية في الحضارة العربية الإسلامية"...الخ

ومن خلال كل هذا حاولت الإجابة عن بعض التساؤلات، منها:

- ما المقصود بالتواصل المعرفي؟ وما هي سبله وتجلياته؟
- كيف أسهمت الترجمة في تفعيل هذا التواصل؟ وماهو أثر الإنتاج الفكري في النهضة الأوروبية؟

وللإجابة عن هذه التساؤلات، فقد ارتأيت استخدام المنهج الوصفي الذي يعتمد على التحليل، وكذا المنهج التاريخي في تتبع بعض الظواهر التاريخية والاجتماعية.

وقد قسّمت هذا العمل إلى مدخل وثلاثة فصول وخاتمة:

تناولتُ في المدخل مفهوم التواصل لغة واصطلاحا، ثم حدّدتُ التواصل من منظور تاريخي واجتماعي ولساني وديني، كما تطرّقت إلى مجالات التواصل وأشكاله، وأتبعته بدور التواصل الحضاري وأهميته بين الشعوب.

وتحدّثتُ في الفصل الأول عن الإرهاصات الأولى لنشأة المجتمع الأوروبي المسيحي خلال القرون الوسطى، وذلك بعرض لمحة تاريخية عن الإمبراطورية الرومانية وعوامل سقوطها، ثم حددتُ طبيعة النظام الإقطاعي،

والنظام الطبقي في المجتمع الأوروبي، ودور الكنيسة في العصر الوسيط، كما وقفتُ على أهم مظاهر النهضة الفكرية خلال القرن الثاني عشر الميلادي.

أما الفصل الثاني، فقد خصّصته لدراسة واقع المغرب الإسلامي، فعرّفتُ فيه ابن تومرت وعبد المؤمن بن علي، ثم تطرقتُ إلى تأسيس الدولة الموحدية وأهم نظمها السياسية والاجتماعية، وكذا الأسس الفكرية التي قامت عليها الدولة.

وأما الفصل الثالث، فقد حاولت فيه الربط بين دول المتوسط من خلال عملية التواصل الحضاري، حيث أوردتُ فيه سبل التواصل الحضاري من طرق تجارة وحروب ومراكز علمية وجامعات، ثم تجليات التواصل المتمثلة في المناظرات والرحلات العلمية، ثم أتبعته بسيرة ابن عربي -أنموذجا-، محاولا إبراز امتداد آثاره بين دول المتوسط.

وأنهيت البحث بخاتمة تضمّنت أهم النتائج المتوصل إليها.

وفي الأخير أسأل الله تعالى التوفيق والسداد، عليه توكلت وإليه أنبتُ وهو نعم المولى ونعم النّصير.

تلمسان في يوم: الأربعاء 09 شعبان 1439هـ

25 أفريل 2018.

سيد أحمد نايري



مدخل

إلى

مفهوم التواصل ودلالاته ووظائفه

1ــ توطئة تاريخية:

يُعدّ التواصل بين الشعوب من الظواهر الإيجابية ال مهمّة، التي كان لها دور بارز في تطور الفكر الإنساني، وتقدم الحضارة و الثقافة العالمي تين، وهو يمثل التأثر و التأثير بين الحضارات، ولمعرفة ما بلغه التواصل من تطور وتقدّم في المفاهيم والوسائل والآليات خلال الفترات الأخيرة، ارتأيتُ الرجوع إلى الحقب الزمنية القديمة و الوقوف على بعض الإرهاصات الأولية لنشوء فكر الاتصال بين الشعوب وتطوره، فقد ورد أنَّ " الإنسان البدائي لم يكن بحاجة إلى هذه التقنية المتطورة من أساليب الاتصال المعقدة ، بل كان يكفيه القيام بحركات تمثيلية أمام جماعته ليعرض عليهم ما يريده، أو كيف انتصر على خصمه الذي غالبا ما يكون حيوانا مفترسا، و في الوقت نفسه، لم يكن بحاجة إلى حركات صوتية كثيرة لتأمين الاتصال بجماعته بسرعة وكفاءة فرضت عليه أن يبحث عن أساليب أخرى متطورة لعملية الاتصال، فكان استخدام الأبواق لإصدار الأصوات، كما استخدم الدخان لإرسال إشارات وهذا لون من ألوان الاتصال"[1].

و من تمّ نلاحظ أنّ فن الاتصال يتطور بتطور حاجات الإنسان، وقد ازدادت حصيلته المعرفية تبعا لازدياد تلك الحاجات، كما ورد أنّ " الإنسان

---

[1] سيكولوجية الإنسان ومهارته، سناء محمد سليمان، عالم الكتب، القاهرة، ط1، 2014: 20

القديم خلّف أعمالا تحليلية جديرة بالاهتمام؛ في مقدمة ذلك الرسوم على الكهوف و المعابد والجدران الصخرية" [2] هذا، أمّا من ناحية أخرى وفي العصور المتأخرة " فكان العرب من الشعوب القديمة والهنود والصينيين يتفوقون على الغرب الذي كان يغطّ في سُباتٍ عميق من الجهل والتخلف، وبدأ الغرب يستيقظ فأفرز ثورات مشهودة، تجارية ودينية واجتماعية وصناعية، وأخيرا اتصالية أدّت إلى تفوق الغرب وعزّزت من مكانته وهيمنته وقوته"[3].

ـ فما هي العوامل التي أدّت إلى ظهور ملامح اتصالية جديدة في تلك الفترات؟ وما هي آثارها على الشعوب؟

وللإجابة على هذا السؤال يمكن الاستعانة بالمراحل التاريخية لتطور الأحداث الاجتماعية والاتصالية التي قادت إلى الوضع الحالي، ومن خلال ذلك يمكن الإشارة إلى أنّ " الحياة بدأت تَدِبُّ في أوصال أوروبا في القرنين الرابع عشر والخامس عشر، وقد شهدت تلك المرحلة اختراع المطبعة، فبدأ عصر الاتصال الجماهيري (أو عصر المطبعة كما يسميه البعض) "[4].

وقد جاء هذا العصر في أعقاب حقبتين معروفتين في تاريخ الاتصال:

---

[2] المرجع نفسه: 20

[3] مهارات الاتصال، جلوب حسين، دار كنوز المعرفة العلمية، عمان، الأردن، ط1، 2010: 15

[4] مهارات الاتصال، جلوب حسين: 15

❖ أولا: الحقبة الشفوية التي امتدّت عبر آلاف السنين، واعتمد فيها الإنسان الذاكرة مرجعا وسندا ومخزنا للمعرفة، وتُوجت هذه المرحلة باختراع الأبجدية على أيدي الكنعانيين والفينيقيين.

❖ ثانيا: الحقبة التي بدأت مع تدوين كتب الحضارة الإغريقية مع مشارف ميلاد المسيح؛ وشهد عصر الكتابة إنجازات عملية وقيَام حضارات قوية كالحضارة العربية[5].

ونستخلص من خلال هاتين الحقبتين (حقبة الذاكرة وحقبة التدوين) ضرورة التواصل باعتباره وسيلة مهمة في حفظ وتخزين العلوم والمعارف عبر تلك الفترات.

كما أصبح الاتصال شيئا ضروريا تعتمد عليه الشعوب في مختلف مناطق العالم، وبخاصة بعد ظهور الطباعة والصحافة والترجمة.

2ـــ مفهوم التواصـــل :

وقبل أن نبدأ عرض تعريفات الاتصال والتواصل يجب أن نذكر أنّ هناك من الباحثين من يفرقون بين كلمة الاتصال والتواصل وذلك على النحو التالي:

[5] المرجع السابق: 15

❖ **الفرق بين الاتصال والتواصل:**

1ــ **الاتصال:** ويقتصر مفهوم الاتصال على وجود إيجابية من طرف واحد كالاتصال بين التليفزيون ومشاهدة البرامج.

2ــ **التواصل:** فيعني المشاركة أوالاتصال ذهابا وإيابًا كما هو الحال بين المعلم وطالبه في غرفة الصف.

وهناك البعض الأخر ممن يتحدث عن المصطلحين كم تترادفين وذلك على النحو الآتي:

مفهوم الاتصال والتواصل عملية اجتماعية تفاعلية متبادلة بين الأطراف المشتركة بها (المرسل والمستقبل) ومن خلالها يتم التعبير عن الذات والأفكار والمشاعر ونقل الأفكار والمعلومات والانطباعات والخبرات ، وإشاعة الفهم والتعاطف وتطوير العلاقات وتحقيق الأهداف المنشودة [6]. وبناء على ذلك أرى أنني أميل إلى التوجه الأخير، وسوف أتحدث عن الاتصال والتواصل من مفهوم واحد خلال العرض لهذا الموضوع.

أ ــ المفهوم اللغوي للتواصل:

---

[6] موقع ديوان العرب منبر حرّ للثقافة والفكر، مقال : مفهوم التواصل: النماذج والمنظورات، جميل حمداوي. (ديسمبر) 2006 www.diwanalarb.com

اشتقت كلمة " تواصل " من الفعل وصَلَ الشيْءَ بالشَّيْءِ، وصْلاً، وصِلَةً بالكسر والضّم، وصلَهُ: لأمَهُ، والوُصلَةُ بالضّم: الاتصال، وكلّ ما اتصل بشيءٍ فما بينهما[7].

ويُقال: وَصلَ إلَى بنِي فلان؛ إذا انتمى إليهم وانتسب، وفي التنزيل العزيز: ﴿إلاَّ الذِينَ يَصِلُونَ إلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾[8].

قال ابن منظور: "الوصل ضد الهجران، وخلاف الفصل، وفي التنزيل العزيز:﴿ ولقد وصّلنا لهُم القول﴾، وصل الشيء إلى شيء إذا انتهى إليه وبلغَه"[9].

وقال الزمخشري: وهو وصِيلُ فلان: لمُواصلة الذي يكادُ يُفارقُه... واصلَ: انتمى[10]

أمّا في الجاهلية، فالوَصلة الناقة التي وصلت بين عشرة أبطن عناقين عناقين، فإذا ولدت في السابقة عناقا وجَذبا قيل وَصلَت أخاها، فلا يذبحون أخاها من أجلها.[11]

---

[7] القاموس المحيط، الفيروز آبادي. (وصل)

[8] المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، إبراهيم مصطفى ومجموعة من المؤلفين.(وصل)

[9] لسان العرب. ابن منظور.(وصل)

[10] أساس البلاغة، الزمخشري، 678 (مادة وصل)

[11] المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية. (وصل)

وَصل المكان، بلغَهُ، انتهى إليه. الوَصْلُ؛ الهبةُ والعطية: " أَعطَاهُ وصْلاً من ذَهبٍ"[12]

كما يفيد التواصل في اللغة العربية الاقتران والاتصال والصلة والترابط والالتئام والجمع والإبلاغ والانتهاء والإعلام.

أمّا في اللغة الأجنبية فكلمة (communication) فتعني إقامة علاقة تراسل وترابط، وهذا يعني أنَّ هناك تشابها في الدلالة والمقصود بين المفهوم التواصل العربي والتواصل الغربي.

ب ــ المفهوم الاصطلاحي للتواصل:

يفترض في كل تواصل ، باعتباره نقلا وإعلاما مرسلا ورسالة وشفرة يتفق في تسنينها كل من المتكلم والمستقبل، وسياقا مرجعيا ، ومقصدية الرسالة، أن يؤدي الوظيفة الأساسية للتعبير عن أبعاد التفاعل الاجتماعي بين الأفراد، ويُعرّف (تشارلز كوليCharles Cooley)التواصل قائلا:" التواصل هو الميكانيزم الذي من خلاله توجد العلاقات الإنسانية و تنمو وتتطور الرموز العقلية بواسطة

---

[12] الكافي معجم عربي حديث، محمد الباشا، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 1992: 1097

وسائل النشر، وهي تتضمن تعبيرات الوجه والإيماءات والإشارات وكل تلك التدابير تعمل بسرعة وكفاءة على قهر بُعدَي الزمان والمكان"[13].

وهذا ما يؤكد أن التواصل هو جوهر العلاقات الإنسانية ومحقق تطورها ، وبالتالي، فالتواصل له وظيفتان هما:

أ- وظيفة معرفية: تتمثل في نقل الرموز الذهنية وتبليغها عبر الزمان والمكان بوسائل لغوية وغير لغوية.

ب-وظيفة تأثيرية وجدانية: تقوم على العلاقات الإنسانية وتتمثل في الانطباعات والمعتقدات[14]. وقد ورد تعريف التواصل بأنّه: " نقل المعلومات والمعاني والأفكار من شخص إلى أخر أو آخرين بصورة تحقق الأهداف المنشودة في المنشأة أو في أي جماعة من النّاس ذات نشاط اجتماعي، إذن هي بمثابة خطوط تربط أوصال البناء أو الهيكل التنظيمي لأي منشأة ربطا ديناميكيا "[15].

ومن تمّ لا يمكن لأي فرد أن يشبع حاجاته بنفسه؛ لذلك هو يحتم إقامة علاقات بين الأفراد المختلفين، فالعلاقات هي المواقف التي يسعى فيها الأفراد

---

[13] سيكولوجية الاتصال الإنساني ومهارته، سناء محمد سليمان: 30

[14] موقع ديوان العرب منبر حرّ للثقافة والفكر، مقال : مفهوم التواصل: النماذج والمنظورات، جميل حمداوي. (ديسمبر) 2006 www.diwanalarb.com

[15] مهارات الاتصال، حسين جلوب: 18

والجماعات إلى تبادل المنافع، فكلّ منهم يحاول أن يؤثر في الأخر ويعدل في سلوكه بهدف إشباع حاجاته.

والاتصال أحد الطرق البارزة سواء أكان ذلك في شكل كلمات أو صور أو موسيقى، مفيد أو ضار، مقصود أو عشوائي، واضح أو غامض، ذاتي أو مع الآخرين".[16]

إذاً العملية الأساسية التي يتم عن طريقها تكوين العلاقات وتبادل المعلومات والأفكار والتجارب بين أفراد المجتمع هي الاتصال، سواء أكان صغيرا أم كبيرا، وهناك اتفاق بين العلماء على اعتبار الاتصال عملية أساسية في حياة المجتمع، ويدخل ضمن هذه العملية كلّ ما يتصل بانتقال الأفكار والمعلومات من فرد لآخر أو من جماعة لأخرى سواء أكانت ذات طبيعة اجتماعية أم ثقافية أو علمية، وسواء أكانت تتصل بالنّاس أنفسهم أم بالبيئة التي يعيشون فيها.

ومن بين التعريفات التي توضح ماهية الاتصال:" أنّه وسيلة رئيسية من الوسائل التي تستخدم لتحقيق أهداف المنظمة بشكل عام، حيث يتم من خلالها

[16] سيكولوجية الاتصال الإنساني ومهارته، سناء محمد سليمان: 22

نقل المعلومات والبيانات والآراء والأفكار بين الأفراد لغرض تحقيق الأداء المستهدف للمنظمة".[17]

و المقصود بالمنظمة في هذا التعريف هو وحدة اجتماعية هادفة لا تستطيع تحقيق أهدافها تلك إلا عبر حلقات مستمرة و حركة دائمة من الاتصالات سواء بطابعها الرسمي أو غير الرسمي، وقد لا يتفق الباحثون و المتخصصون في تحديد مفهوم موحد للاتصال بشكل دقيق، حيث إنّ كلمة اتصال (communication) كلمة مشتقة من اللفظة اللاتينية (communis) و تعني المشاركة في الحديث و الرأي و المشورة عند اتخاذ القرار، والاتصال وفقا لهذا الفهم يعني المشاركة في المعلومات والتبادل في اتخاذ القرارات، أو المساهمة في المشاعر أو الأحاسيس والاتجاهات و غيرها من الاعتبارات ذات الأهمية في التواصل بين الفرد والجماعة، وقد وردت كلمة الاتصال في قاموس أكسفورد بأنها نقل وتوصيل أو تبادل الأفكار و المعلومات بالكلام أو الكتابة أو الإشارات[18]، فكلمة الاتصال تعني :

1. المعلومات المراد تبليغها

---

[17] الاتصال الفعّال في إدارة الأعمال، خضير كاظم حمود، دار الصفاء للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 2010: 29

[18] موقع ديوان العرب منبر حرّ للثقافة والفكر، مقال : مفهوم التواصل: النماذج والمنظورات، جميل حمداوي. (ديسمبر) 2006 www.diwanalarb.com

2. الرسائل الشفوية والكتابية

3. تبادل الآراء والأفكار أو المعلومات والمفاهيم

4. الشبكة التلفونية أو وسائل الاتصال المستخدمة بصورة عامة.

3 ـ مجالات التواصل :

1ـ التواصل من منظور نفسي:

يستخدم مفهوم التواصل في علم النفس بأنّه " نقل انطباع أو تأثير من منطقة إلى أخرى دون النقل الفعلي لمادة ما؛ وقد تشير إلى: " نقل انطباعات من البيئة إلى الكائن وبالعكس أو من فرد إلى أخر"[19].

ومفهوم التواصل يتحدد في المعنى الأخير للإشارة إلى الظاهرة الأساسية في علم النفس؛ وهي: إنّ الكلام وسيلة من وسائل الاتصال.

ذلك أنّ علم النفس يتناول الاتصال بالدراسة بوصفه نسقا جماعيا يؤثر بطريقة أو بأخرى في العلاقات المتبادلة بين أعضاء الجماعة آرائهم واتجاهاتهم وما إلى ذلك.

أـ تعريف الاتصال من وجهة نظر المدرسة السلوكية:

---

[19] سيكولوجية الاتصال الإنساني ومهارته، سناء محمد سليمان: 26

تشير المفاهيم في نظر المدرسة السلوكية إلى أنّ: " الاتصال هو عملية نقل المعاني عن طريق الرموز" [20]، فعندما يتفاعل الأفراد مع بعضهم بعضا بواسطة الرموز، فإنّهم يقومون بعملية الاتصال، ولا يمكن القول بأنّ عملية الاتصال تمّت بين مرسل الرموز ومستقبلها إلاّ إذا فهم كلّ منهما موقف الآخر، أو بمعنى آخر حدث تجاوب بينهما أو إدراك المُستقبِل وجهة نظر المرسل، وعلى هذا لكي يتم الاتصال يجب أن يكون معنى الرمز واحدا عند المرسل والمُستقبِل.

ويعتبر هذا الرمز بمثابة الشفرة التي يفهمها المرسل والمرسل إليه فقط، وهناك أمثلة كثيرة في الحياة العملية وفي التاريخ تبيّن إخفاق الاتصال بين الأفراد والجماعات والدول خصوصا بين أجناس مختلفة، وهو إخفاق ناتج عن سوء إدراك الرمز المتبادل بين المرسل والمتلقي ممّا يؤدي إلى سوء التفاهم و المنازعات و الحروب؛ وقد نشير هنا إلى حادثة تحطم مكوك الفضاء (تشالنجر،challenger) التي حدثت في قاعدة (كيب كانفيرال، cape canaveral) عام 1986م، والذي نتج عنه مقتل سبعة روَاد فضاء بالإضافة إلى عدد من المدنيين كانوا على متن المكوك. إذ إنّ الحادث لم يكن بسبب كارثة

---

[20] سيكولوجية الاتصال الإنساني ومهارته، سناء محمد سليمان:29

هندسية، ولكن كانت كارثة تواصلية، فقد تبين أنّ التواصل الجيد لاسيما بين الفنيين ضروري في هذه الحالات.

وبناء على ذلك يمكن القول ببساطة أنّ كارثة تشالنجر هي قضية تواصل، وعدم القدرة على تحقيق هذا التواصل أدى في نهاية المطاف إلى حدوث كارثة حقيقية.

وهناك تعريفات أخرى لرواد المدرسة السلوكية:

1ـ تعريف كارل هوفلاند ــــ(Carl Hofland) (ت1948)

يرى بأنّ " الاتصال عملية يقوم بموجبها شخص (المرسل) أي القائم بالاتصال بإرسال منبهات (عادة رموز لغوية) يقصد تعديل أو تغيير سلوك شخص آخر (المُستقبِل) أي مستقبل الرسالة إذ ينبغي التعريف على أنّ القائم بالاتصال لا ينقل عمدا (أي بشكل هادف) منبهات "[21]

تتجلى عملية التواصل في هذا التعريف إذا عن طريق بعث منبهات للآخر قصد التعديل أو تغيير سلوك شخص، وأرى أنّ هذا النوع من التواصل مختصر لكن يستطيع أن يؤدي وظيفة التبليغ.

---

[21] سيكولوجية الاتصال الإنساني ومهارته، سناء محمد سليمان: 29

2 ـ تعريف شانون وويفرـــــ (CHanoun Wofer) (1949):

" إنّ الاتصال يمثل كافة الأساليب والطرق التي يؤثر بموجبها عقل في عقل آخر باستعمال الرموز المختلفة بما في ذلك الفنون".[22]

3ـ أمّا تعريف برنسون وستاريزل (Bernson west arizel)(1964):

في قوله: " الاتصال عملية نقل المعلومات والأفكار والمهارات بواسطة استعمال الرموز (الكلمات) الصور والأشكال والرسومات". [23] هذا قد يشترك مع التعريف السابق الخاص ب توظيف الرموز المختلفة في نقل المعلومات والأفكار إلى الآخر، فشانون يقول: " ... الرموز المختلفة بما في ذلك الفنون"، وبرنسون وستايز جسّد تلك الفنون في الصور والأشكال والرسومات....

2 ـ التواصل من منظور اجتماعي وثقافي:

يُعدّ التواصل من أهم المواضيع التي تهتم بعلاقة النّاس مع بعضهم بعضا وكيفية حدوث التواصل بينهم ويُعرّف التواصل بأنّه " عملية نقل هادفة

---

[22] المرجع نفسه: 29

[23] نفسه: 29

للمعلومات من شخص إلى آخر ومن مجموعة إلى أخرى، بغرض إيجاد نوع من التفاهم المتبادل بينهما".[24]

و من تمّ نستخلص من هذا التعريف أنّ العملية التواصلية سواء أكانت بين فرد وآخر أم جماعة من الأفراد تتحدد شروطها في الآتي:

1ــ **الغائية:** أي الهدف من التواصل ومقصديته البارزة (البعد المعرفي أو الوجداني)

2ــ **الآلية:** وطريقة التفاهم المتبادلة بين المرسل والمُستقبِل وتتمثل في السلوكات اللفظية وغير اللفظية.

وقد ورد بأنّ " التواصل الاجتماعي هو العملية التي يتم من خلالها نقل المعلومات والأفكار وتبادلها بين طرفين أو أكثر بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، وباستخدام وسيلة أو عدة وسائل اتصالية من خلال تفاعل الأفراد من مجموعات وثقافات مختلفة، وذلك من أجل إتاحة الفرصة لتوصيل المعنى وفهم الرسالة"[25].

---

[24] التواصل الاجتماعي من منظور نفسي واجتماعي وثقافي، عدنان يوسف العتوم، عالم الكتب الحديثة، الأردن،ط1، 2011: 01

[25] المرجع السابق: 01

ويقوم التواصل الاجتماعي بوجه عام بنقل الثقافة والمعرفة بأنواعها والمعلومات المختلفة من شخص لآخر أو من ثقافة إلى أخرى أو من نقطة إلى أخرى عبر الزمن لتتخذ لها مسارا يبدأ عادة من المصدر الذي تتبع منه إلى الجهة التي تستقبلها ثم يرتد ثانية وهكذا.

ويؤكد ابن خلدون أنّ هذه الارتدادات تأخذ أشكالا مختلفة تساعد المصدر على معرفة مدى ما تحققه من أهداف فيغير من رسالته ومن محتوياتها وطريقة تقديمها وعرضها بما يحقق التفاهم المنشود ويضمن وصول الرسالة بشكل صحيح.

ومن هنا نستخلص أنّ الاتصال يُعدُّ ركنا مهما في حياتنا اليومية، فنحن نتبادل كميات ونوعيات كبيرة من البيانات والمعلومات، فمن السؤال عن الأحوال إلى تبادل المشاعر ونقل الأفكار واستعراض الأخبار وتناقل وجهات النظر وتوفير المعلومات وغيرها مما يتعلق بأدق التفاصيل وأصغرها.

نظرية التواصل الاجتماعي:

نظرية التواصل الاجتماعي هي نظرية حديثة وقد تكون بديلا معرفيا عن التنظير الاجتماعي الذي يتناول عمليات التواصل، فإنّ " نظرية التواصل تعتقد

بأنّ عمليات التواصل إمّا أن تكون متعمدة أو اختيارية ما يجعلها غير خاضعة للقياس والمقارنة مع النظريات التقليدية للتواصل الاجتماعي "[26]

وقد ترتكز هذه النظرية كذلك على دراسة المجتمعات من منطلق اجتماعي ــ ثقافي ــ نفسي يشكل أسس السلوك والشخصية التفاعلية ذات العلاقات المتعددة.

ومن أهم مبادئ هذه النظرية ما يلي:

1. إنّ دراسة التواصل يجب أن تهتم بدراسة خصائص الرسائل، وليس خصائص الأشخاص.
2. إنّ العلاقات الإنسانية بين النّاس تنشأ وتتشكل من خلال الرسائل.

ونلاحظ أنّ المبدأ الأول ينص على دراسة التواصل من وجهة نظر التخصص الأكاديمي، يجب أن ت ؤخذ طبيعة المعنى، والرسالة أو المعلومات على أنّها نقطة الانطلاق للتحليل مما يعني أن مظاهر التركيبة الاجتماعية والشخصية والمعرفية والثقافية ليست هي الظواهر التي يجب التركيز عليها في علم التواصل.

---

[26] التواصل الاجتماعي من منظور نفسي واجتماعي وثقافي، عدنان يوسف العتوم: 05

بل إنّ الاهتمام ينصب على تلك اللبنة الأساسية في التواصل وهي المعنى الذي يصفه " باتسون" بأنّه الاختلاف الذي يصنع الاختلاف.[27]

إنّ نظرية التواصل الاجتماعي (الكلاسيكية)، حين اعتبرت بأنّ الأشخاص وهوياتهم تتشكل بطريقة تفاعلية، وضعت الحصيلة الاجتماعية الثقافية (بكل قيودها ومحظوراتها، وتوابعها) التي تشكل الفئات التي تستهدفها جميع العمليات التفاعلية أو البنائية في صلب تحليلها، فكلّ فرد في المجتمع هو لحظة من لحظات المجتمع.

ولكن أود الإشارة هنا إلى أنّ هذا التصور لا يلغي الدور المحتمل للعلوم الأخرى بل إنّه يبرز دور التواصل والحصيلة الاجتماعية الثقافية المتنقلة حسب الأوضاع في تكوين وتغذية الشخصية.

و من تمّ فإنّ طبيعة المعنى (المشتقة من الإرث الاجتماعي ــ الثقافي)، تحتاج إلى بنية سلوكية نمطية مُعدّة مسبقا من خلال أفراد المجتمع، حيث ينتج عنه تحديد العلاقات بين هؤلاء الأشخاص ضمن نطاق المكان والزمان الذي

---

[27] التواصل الاجتماعي من منظور نفسي واجتماعي وثقافي، عدنان يوسف العتوم:06

يجمعهم، وبهذا لا تكون العلاقة مُجرّد كينونة ينبثق عنها التواصل ولكنّها تصبح عنصرا أساسيا من مكونات السلوك الذي يتحكم بالأشخاص[28].

3ـ التواصل من منظور لساني :

يُعدّ رومان ياكوبسون (Roman Jackobson) واضع النموذج اللساني سنة 1964، إذ اعتبر أنّ وظيفة اللغة الأساسية هي التواصل، وذلك من خلال قوله : " إنّ للغة عوامل ستة يمكن أن يتخذ منها عالم اللغة نقطة شروع لدراسة الفعل الاتصالي، هذه العوامل هي المرسل (أو المتكلم) والمتلقي (أو المستمع) والسيّاق وقناة الاتصال والشفرة والرسالة"[29].

ولكلّ عنصر وظيفة خاصة :

1. فللمرسل وظيفته انفعالية تعبيرية
2. والرسالة وظيفتها جمالية من خلال إسقاط محور الاستبدال على محور التركيب
3. والمرسل إليه وظيفته تأثيرية وانتباهية
4. والقناة وظيفتها حفاظية

---

[28] ينظر: المرجع السابق: 6ـ7

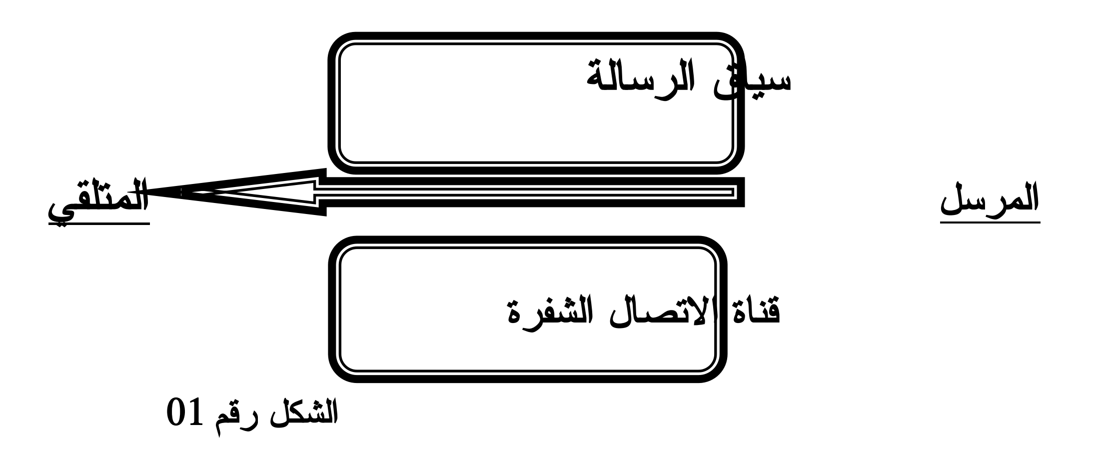
[29] أساسيات اللغة رومان ياكوبسون، موريس هالة، ت سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي، أبوظبي، ط1، 2008: 19

5.والمرجع وظيفته مرجعية أو موضوعية

6.اللغة وظيفتها لغوية وصفية

وهناك من يضيف الوظيفة السابعة للخطاب اللساني وهي الوظيفة الإيقونية.

ويمثل ياكوبسون هذه العوامل بالمخطط التالي[30]:



الشكل رقم 01

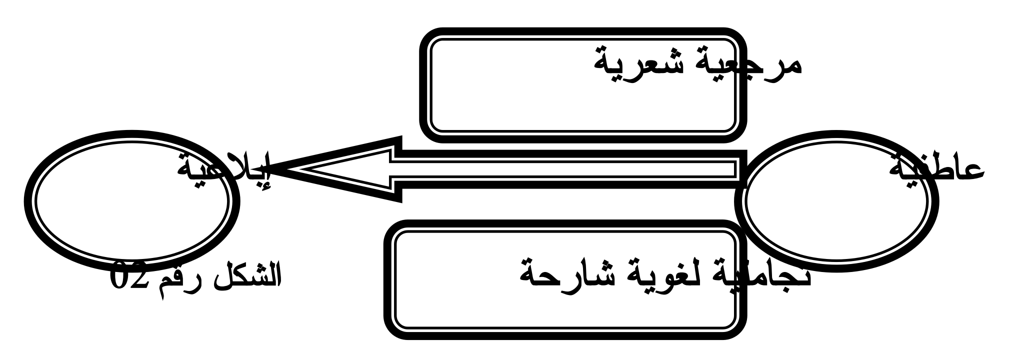
لكن البنية اللغوية للرسالة تعتمد في الأساس على الوظيفة المهيمنة ؛ إذ يقول رومان ياكوبسون :" تسمى بالوظيفة العاطفية أو التعبيرية التي تتركز حول المرسل تهدف إلى التعبير المباشر عن موقف المتكلم انطباع عن عاطفة مركزية سواء أكانت حقيقة أم وهمية "[31].

---

[30] أساسيات اللغة رومان ياكوبسون، موريس هالة، ت سعيد الغانمي. ص19

[31] نفس المرجع. ص 20

ويمثل ياكوبسون لذلك بالمخطط التالي[32]:



الشكل رقم 02

و يمكن تجسيد هذا العرض التواصلي على الشكل الآتي:

- المتحدث الأول: هل أنت مشغول؟
- المتحدث الثاني: لا أبدا
- المتحدث الأول: حسناً! إن استطعت ألق نظرة على خطّة الدرس التي أعددتها.
- المتحدث الثاني: أرني[33].

نلاحظ أنّ المتحدث الأول استخدم اللطف والتأني في التعامل مع المتحدث الثاني، حتى هيأ هذا الأخير نفسه للردّ عليه بالإيجاب.

ويمكن استخلاص وظائف التواصل لدى رومان ياكوبسون على النحو الآتي:

---

[32] المرجع السابق: 21

[33] مقدمة في التطور اللغوي، روبرت أوينس، ت: مصطفى محمد قاسم، دار الفكر، الأردن، ط 1، 2010: 46

1ــ الوظيفة المرجعية:

يلتجئ المدرس هنا إلى الواقع أو المرجع لينقل للتلميذ أو الطالب معلومات وأخبارا تحيل على الواقع، فالهيمنة هنا المعارف الخارجية والمعارف التقريرية المرتبطة بمراجع وسجلات كالمرجع التاريخي والمرجع الأدبي والمرجع اللساني والمرجع الجغرافي...

2ــ الوظيفة التعبيرية: تتدخل في هذه الوظيفة ذات المرسل وذلك من خلال انفعالاته وتعابيره الذاتية ومواقفه وميولاته الشخصية والإيديولوجية.

3. **الوظيفة التأثيرية:** تنصب على المتلقي، ويهدف المرسل من ورائها إلى التأثير في مواقف أو سلوكات وأفكار المرسل إليه؛ لذلك يستعمل المدرس لغة الترغيب والترهيب والترشيد من أجل تغيير سلوك المتعلم.

4ــ الوظيفة الشعرية أو الجمالية: إن الهدف من عملية التواصل هو البحث عما يجعل من الرسالة رسالة شعرية أو أجناسية جمالية، وذلك بالبحث عن الخصائص الشعرية والجمالية مثل التركيز على جمالية القصيدة الشعرية ومكوناتها الإنشائية والشكلانية.

5ـ الوظيفة الحفاظية: الهدف منها التركيز على القناة لوظيفة حفاظية وإفهامية كأن يستعمل المدرس خطابا شبه لغوي أو لغوي أو حركي من أجل تمديد التواصل واستمراره بين المدرس والتلاميذ/ الطلبة، وذلك باستعمال بعض المركبات التعبيرية التالية: (أرجوكم أن تنتبهوا إلى الدرس!)، (انظروا هل فهمتم؟)، (اسمع أنت!) الخ

6ـ الوظيفة الميتالغوية أو الوصفية: يركز المدرس عبر هذه الوظيفة على شرح المصطلحات والمفاهيم الصعبة والشفرة المستعملة مثل شرح قواعد اللغة والكلمات الغامضة الموجودة في النص والمفاهيم النقدية الموظفة أثناء الشرح[34].

وقد تأثر ياكوبسون في هذه الخطاطة التواصلية بأعمال فرديناند دوسوسير Ferdinand. De Saussure والفيلسوف المنطقي اللغوي جون أوسطين John L. Austin.

4 ـ التواصل من منظور ديني:

منذ أن خلق الله سبحانه وتعالى النّاس، هو غني عنهم، خلقهم مختلفي الطبائع والرغبات والميول والاتجاهات وقد كان للثقافة الاجتماعية السائدة دور فاعل في هذا الاختلاف.

---

[34] موقع : ديوان العرب، مقال ،جميل الحمداوي. www.diwanalarb.com

وقد يؤدي التواصل دورا أساسيا في حياة الإنسان بداية من إشباع حاجاته الطبيعية وانتهاء بتقدير الذات، إلّا أنّ تقدير الذات لا ينم عن أن التواصل موجود في كلّ زمان ومكان، والإنسان يمارسه في الأغلب بشكل آلي أو فطري، سواء أكان بالإشارة أو باللغة، وهذا ما يجعله عرضة للخطأ أو الصواب في تحقيق أهدافه.[35]

وقد أكّدت شريعة الإسلام أهمية التواصل حيث ورد في محكم التنزيل: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾[36]

وقال أيضا:﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾"[37]

وفي الحديث الشريف قال الرسول صلى الله عليه وسلم:" اتقوا النار ولو بشق ثمرة فإن لم يكن فبكلمة طيبة"[38].

---

[35] سيكولوجية الاتصال الإنساني ومهارته، سناء محمد سليمان: 73

[36] سورة آل عمران، الآية: 159

[37] سورة النحل، الآية: 125

[38] صحيح البخاري [1349]

ف في الآيتين الكريمتين والحديث النبوي الشريف تأكيد على ضرورة التواصل الفعّال الحسن بين أفراد المجتمع، وتعزيز الروابط الاجتماعية وترقية العلاقات وتحسين لغة الخطاب بالحكمة والموعظة الحسنة، وأيضا تجسيد التواصل الفعّال بالكلمة الطيبة اللينة والابتسامة التي تنم عن الاهتمام المتبادل بين الأفراد.

ولتوضيح ماهية التواصل وعناصر ه ، ونستقي هذا المثال ممّا ورد في سورة الكهف في القرآن الكريم عن قصة سيدنا موسى عليه السلام حين كان يخطب في بني إسرائيل وسألوه هل على وجه الأرض من هو أعلم منك؟ وهنا أجاب عليه السلام: لا، ظ اناً أنّه أعلم من في الأرض فغضب الله عليه لأنّه لم يتواضع ولم ينسب العلم لله سبحانه وتعالى. فأوحى الله إليه بالذهاب إلى الخضر لأنّه أعلم منه وذلك في قوله عزّ وجلّ: ﴿ قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا (66) قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (67) وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا (68) قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا

أَعْصِي لَكَ أَمْرًا (69) قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا(70). ﴾[39]

وحين ذهب إلى الخضر وعرض عليه أن يصحبه ليتعلم من علمه اشترط عليه الخضر ألا يسأله عن شيء حتى يبينه. فانطلقا يمشيان على ساحل البحر، فمرت سفينة فركبا فيها فخلع الخضر لوحا من ألواح السفينة ليغرقها فانكر عليه موسى عليه السلام فعله هذا. ولو نظرنا إلى هذا الموقف ــ خرق السفينة وانكار سيدنا موسى عليه السلام لفعل الخضرــ من حيث كونه عملية تواصل أم لا، فإن عملية التواصل تتحقق في هذا الموقف من حيث إنها عملية اجتماعية تمت بين الخضر وموسى عليه السلام وعملية نفسية حيث تأثر سيدنا موسى عليه السلام بما رأى أمامه و انكر الفعل وهذا الفعل والانكار عملية نفسية.[40]

4 ــ أشكال التواصل:

ينصبُّ مفهوم الشكل في التواصل على الرسالة التي تتخذ شكلا معينا، و نركز هنا على نوعين من الاتصال هما: الاتصال اللفظي وغير اللفظي.

---

[39] سورة الكهف، الآية: (66 ــ 70)

[40] التواصل الاجتماعي من منظور نفسي واجتماعي وثقافي، عدنان يوسف العتوم: 19

1ــ الاتصال اللفظي:

يكون الاتصال اللفظي عن طريق الكلام واستخدام اللغة وسيلة للتواصل بين الأشخاص، سواء أكانت منطوقة أم مسموعة أم مكتوبة أم مقروءة، وهو الشكل الشائع من التواصل، كما نلاحظ اختلاف الاتصال اللفظي من شخص إلى آخر، بمعنى أن كل شخص يستطيع أن يعبّر عن الفكرة نفسها ولكن باستخدام تعابير مختلفة (شعر، نثر، زجل و لغة عامية) وهذا هو الذي يؤدي إلى التنوع في عملية الاتصال.

أ ــ الكـــــــلام:

إنّ الكلام وسيلة لفظية للتواصل كغيره من طرق التواصل الأخرى كالكتابة والرسم والإشارات اليدوية وغيرها، وعلى اعتبار أنّ " الكلام ينتج عن تخطيط وتنفيذ تتابعات حركية محددة، أي فونيمات phonemes ، ومجموعات صوتية تخص تلك اللغة، كما يشتمل الكلام على مكونات أخرى مثل: جرس الصوت والتنغيم والسرعة وتلك المكونات تعزز معنى الرسالة."[41]

---

[41] مقدمة في التطور اللغوي ، روبرت أونيس، مصطفى محمد قاسم:36

و من تمّ نرى أنّ الكلام هو فعل صوتي سمعي معقد للغاية يختلف عن أي صوت بيئي آخر، حتى الموسيقى لا يتحقق فيها مستوى التعقيد الموجود في الكلام.

مثال ذلك لفظ (شِرْذمةٌ) إذا نطقناها ببطء شديد فسنجد أنّ الصوت الأول لا يناسب الأصوات البشرية، وإذا كررنا نطق الكلمة بالسرعة العادية فنلاحظ هذه الحركات تتم بشكل يسير.

إذن لا يمكن لنوع آخر أن يضاهي الكلام البشري في تنوع أصواته وتعقيدها، وهذه الخصائص ناتجة عن التركيب الفريد للجهاز الصوتي البشري.

ب ــ اللغـــــــــة :

تظلّ أصوات الكلام الفردية ضوضاء بلا معنى إلى أن تخضع إلى قواعد لغوية تحددها وتجعلها منظمة وموحدة.

فقد عرفها ابن جني بقوله:"أمَّا حَدُّها فإنَّها أصواتٌ يُعبّر بها كلُ قومٍ عن أغراضهم "[42]. وممّا يلاحظ أنَّ ابن جني قد سبق من حيث الفكرة ــ رغم بساطة العرض ــ أقوال المحدثين، بجعله اللغة ظاهرة اجتماعية، نفسية

---

[42] الخصائص، ابن جني، تح : محمد علي النجار، دار الكتاب العربي، بيروت،ط2، 1983. 33/1

وبشرية، تعبِر عن الغرض بأصوات محدودة من حيث الشكل، ويُفهم من الأصوات ها هنا النظرة الشاملة للغة من باب المجاز.

وبتحليل هذا التعريف تبرز ثلاثة عناصر رئيسية في طبيعة اللغة هي:

أ ــ الطبيعة الصوتية للرموز اللغوية.

ب ــ أنَّ وظيفة اللغة الاجتماعية هي التعبير في إطار البيئة اللغوية.

ج ــ أنَّ اللغة تؤَدي وظيفتها في مجتمع بعينه، فلكل قوم لغتهم.[43]

وما يهمُنا من هذا التحليل هو إبراز الوظيفة التواصلية للغة في المجتمع مع إيضاح أثرها في الجوانب السياسية والفكرية والحضارية ؛ فعندما يذكر ابن جني في قوله: (يعبر بها) أي يمثل الجانب الوجداني للغة، فاللغة هي أسرع وسيلة للتعبير والتواصل يستخدمها الأفراد للوصول إلى نقطة معيَّنة، ثم يضيف قائلا: (كل قوم) أي الجانب الاجتماعي للغة، فاللغة لا تعتبر ذات قيمة فعلية إلاَّ من خلال الجماعة، (عن أغراضهم) ويعني به الجانب النفعي للغة، فهي تساعد الفرد على الوصول إلى أهدافه وتحقيق غاياته.

وعرفها دي سوسير قائلا:

"Un système de signe expriment des idées"[44]

---

[43] المولد في العربية، حلمي خليل ، دار النهضة، بيروت، ط8، 1985: 15

أي أنَّ اللغة نظام من الإشارات موضحة لمعان.نجد أنَّ دي سوسير يتفق مع جماعة من العلماء على أنَّ اللغة ظاهرة إنسانية محضة لأنها تحتاج إلى العقل والتفكير وليس الغريزة التي يشترك فيها كل من الإنسان والحيوان الذي لا يملك لغة؛ بمعنى الكلمة.

ويعرفها مارتيني على أنها : "أداة اتصال يتم بواسطتها تحليل التجربة الإنسانية المتباينة بحسب كل فئة اجتماعية "[45] .

إذا اللغة عند مارتيني هي وسيلة للتواصل تعكس ماضي الإنسان عبر مراحله المختلفة، وقد يتفق مع مفهوم ديوي Dewy الذي يعرّفها على أنّها :" أداة اتصال وتعبير تحتوي على عدد من الكلمات، بينها علاقات تركيبية تساعد على نقل الثقافة والحضارة عبر الأجيال".[46]

ومن تمّ نلاحظ من خلال تعريفات العلماء والدارسين للغة بأنّها سلوك معرفي يميّز الإنسان بصفته كائن ا حيٍ مقارنة بالكائنات الحية الأخرى، إذ إنّ الفرق بين نظام اللغة الإنساني يختلف بدرجات كبيرة جداً عن أي نظام اتصال

---

[44] اللغة والممارسة الدينية، جفال فتيحة، إشراف مزوار لخضر،قسم علم الاجتماع، جامعة تلمسان.2009/2008.ماجستير.: 14

[45] المعجمية العربية، ابن حويلي الأخضر، دار هومه، الجزائر، ط1، 2010: 10

[46] التواصل الاجتماعي من منظور نفسي واجتماعي وثقافي، عدنان يوسف العتوم: 122

للكائنات الحية الأخرى، وهذا ما دفع أرسطو إلى و صف الإنسان بالحيوان الناطق، وقد توصّل علماء اللغة إلى أن أصوات الحيوان هي مجرّد رموز وإشارات، بينما لغة الإنسان كاملة النضج من حيث النطق والاستعمال والتواصل.

جــ ــ وظائف اللغة:

تعدُّ اللغة وسيلة اتصالية لتحقيق التفاعل الاجتماعي بين الفـــــــــرد والآخرين،وهي تهدف إلى ايصال الفكر، فالكلام يفيدُ في نقل رسالة من المرسل إلى المتلقي، ففي عملية الاتصال يريد المرسل أن يكون مفهوما من قبل المتلقي، إلا إذا كان هناك تلاعب بالكلمات ينبغي أن يكون خطابه أحادي المعنى، والمتلقي يفك رموز الرسالة المتلقاة يفهمها طبقًا لرغبة المرسل وإ لا وجد نفسه في مواجهة الغموض واللبس.

ومن أهمّ وظائف اللغة نذكر :

- الوظيفة الاتصالية: اللغة أهم وسيلة للتواصل البشري
- الوظيفة النفعية: التعبير عن الحاجات والرغبات

- ❖ الوظيفة التنظيمية: تنظيم علاقة الفرد مع الآخرين
- ❖ الوظيفة التفاعلية الاجتماعية: تحقيق التفاعل في المجتمع
- ❖ الوظيفة الشخصية والوجدانية: التعبير عن المعتقدات والرغبات والانفعالات
- ❖ الوظيفة الاستكشافية التعلمية: وسيلة لاستكشاف البيئة المحيطة بالإنسان.[47]

وهناك وظائف كثيرة للغة تتعلق بعدّة جوانب، نحن نركز في هذا البحث على الوظائف الاتصالية للغة.

2ــ الاتصال غير اللفظي:

إنّ نقل الأفكار والمعاني لا يقتصر على استخدام الكلمات المقروءة أو المنطوقة بل هناك وسائل أخرى يتم من خلالها التواصل تتمثل في لغة الجسم، الإشارات، الإيماءات واستخدام الأشياء...ويطلق كذلك على الاتصال غير اللفظي اللغة الصامتة.

أ ــ لغة الجسد:

[47] التواصل الاجتماعي من منظور نفسي واجتماعي وثقافي، عدنان يوسف العتوم: 125/124 (بتصرف)

تتضمن هذه اللغة نقل المعاني من خلال حركات وتعبيرات الوجه، والايماءات، والانحناءات، ووضع الجسم، وحركات اليدين، واللمس، وشكل أو مظهر الجسم وتنقسم إلى عدّة أشكال منها:

- **الإشارات أو الشعارات العامة:** تتكون من الإشارات البسيطة أو المعقدة التي يستخدمها الإنسان في الاتصال بغيره، مثال ذلك رفع الإبهام للتعبير عن التمني بالتوفيق، ورفع الشرطي يده اليمنى مع بسط الكف لإيقاف المرور. والشعارات هي التي يتفق عليها مجتمع معين لتحل محل الكلمات.[48]
- **الحركات الايضاحية والضابطة** : وهي حركات تستخدم لاستكمال معنى الرسالة المنطوقة لأنها غالبا ما تصاحبها، أمّا الضابطة فتتمثل في ضبط الاتصال الشفهي ؛ فهز الرأس بما يفيد الموافقة من قبل المستقبل يشجع المرسل على الاستمرار في الحديث.[49]

ب ــ تعبيرات الوجه ولغة العينين:

يعتبر الوجه أكثر أجزاء الجسم وضوحا وتعبيرا عن العواطف والمشاعر وأكثرها في نقل المعاني، كما أنّه أكثر الأجزاء صعوبة في فهم التعبيرات التي

---

[48] مهارات الاتصال، حسين جلوب :29

[49] مهارات الاتصال، حسين جلوب: 29

تصدر عنه، ويمكن القول أنّ هناك على الأقل ستة أنواع من العواطف التي يمكن التعبير عنها باستخدام الوجه وهي: (السعادة، الغضب، الدهشة، الحزن، الاشمئزاز، الخوف)[50]

وأكثر مناطق الوجه تعبيرا هي منطقة العينين، فيقال هذه عيون ماكرة، أو عيون ذكية، أو عيون مخادعة، وكلّها تعبر عن شخصية صاحبها.

جـــ ـــ لغة الأشياء:

ويقصد بها ما يستخدمه مصدر الاتصال غير اللفظي الإشارة والأدوات والحركة للتعبير عن معان أو أحاسيس يريد نقلها للمتلقي، فالملابس والأدوات التي تستخدم على المسرح مثلا قصد نقل الإحساس بالجوّ والزمان لفترة من الفترات إلى المشاهدين لكي يعيشوا فيها طوال عرض المسرحية، وارتداء اللون الأسود في كثير من المجتمعات يقصد به إشعار بالحزن الذي يعيش فيه.[51]

---

[50] المرجع نفسه:30

[51] بتصرف، سيكولوجية الاتصال الإنساني ومهاراته، سناء محمد سليمان: 89

هذا، بالإضافة إلى بعض الأمور الأخرى كإشعال النار، وإطلاق الدخان الذي يوحي بوجود شخص أو جماعة تطلب النجدة.

- **جدول يبين بعض دلالات لغة الجسم وهي تعتمد على الملاحظات[52]:**

التصرف غير اللفظي	الدلالات العلمية
الابتسامة	الارتياح أو الرضا أو الموافقة
قضم الشفاه	العصبية أو الغضب أو الضيق
رفع الحواجب	المفاجأة أو الدهشة
رفع الحواجب مع تحريك الشفاه أو الكتف	التعجب أو الاندهاش
رفع الحواجب مع ابتسامة مصطنعة	التهكم والسخرية

[52] سيكولوجية الاتصال الإنساني ومهاراته، سناء محمد سليمان: 90

تضييق العينين	عدم الموافقة أو الشعور السلبي
الإيماءات لأعلى ولأسفل	المتابعة والإنصات أو التأثير
الانحناء للأمام	الاهتمام أو العناية
الحركة الكثيرة في الجلسة على	القلق والسأم أو التعب
الاستقامة والاعتدال في الجلسة	الثقة بالنفس
الاسترخاء على الكرسي	السأم واللامبالاة
تركيز العين في عين الطرف الآخر	الانصات أو تركيز الانتباه
تجنب تلاقي الأعين	البرود أو الهروب أو اللامبالاة أو العصبية
التثاؤب	الملل والضجر
التربيت على الكتف	الموافقة أو الطمأنينة أو التشجيع أو الصداقة

فللاتصال غير اللفظي مجال واسع لا يمكن حصره في هذه العناصر بل يتعدى ذلك إلى ما يتماشى وينسجم مع السلوك الإنساني العام طبقا للقيم الدينية والاجتماعية والثقافية لكل مجتمع من المجتمعات.

5ــ التواصل الحضاري :

الحضارات البشرية سلسلة متصلة الحلقات، تأخذ كلّ واحدة منها بعضد الأخرى، ولا يمكن أن تنفصل هذه الحلقات، وإلّا لتوقف العلم وانتهى إلى حيث ينتهي الاتصال بينها؛ أي ما يربط الحضارات مع بعضها البعض ويطورها عبر مرور الأزمنة واختلاف الأمكنة، انفتاحها على الحضارات الأخرى، وتواصلها مع غيرها بفعل آليات متنوعة تساهم في استمرار وديمومة هذا الفعل الحيوي.

- **حتمية التواصل الحضاري:**

" الحضارة التي استقلت بمفهومها استقلالا تامّا ولم تعتمد على غيرها أو تتفاعل مع الحضارات السابقة لها واللاحقة عليها، هذه الحضارة لم تولد بعد، لأنّه قد ثبت أن جميع الحضارات التي عرفها الإنسان استفادت من الحضارات الأخرى وأفادت تلك الحضارات"[53].

[53] التواصل الحضاري والحفاظ على الذاتية، سعد الدين سيد صالح، دار الصحوة، القاهرة، ط1، 1994: 09

وهذا خلاف ما يراه شبنجلر من أنّ كلّ ثقافة هي تركيب عضوي ذات نوع خاص يختلف عن الثقافات السابقة، لا صلة له بها سواء كانت قبله أو بعده.

ومن تمّ ، فالملاحظ أنّ الاتصال بين الثقافات أمر ضروري وطبيعي، بل يتجاوز كلّ القيود الجغرافية والعقائدية واللغوية، لأنه سنّة كونية لابدّ منها.

والاستفادة من الحضارة السابقة لا يقلل من شأن الحضارة اللاحقة، لأنّ طبيعة التطور الحضاري للجنس البشري تستلزم ذلك، بل إنّ استفادة الحضارة اليونانية من الحضارات الشرقية القديمة لم ينقص من قيمتها، أو استفادة الحضارة الغربية الحديثة من تراث الإسلام وحضارته لم يحط من قدرها كذلك.

وهنا نشير إلى الدورالبارز للحضارة العربية الإسلامية تجاه الحضارات السابقة واللاحقة،فقد أدّت دور الوسيط في المحافظة على التراث العالمي، حين استوعبته وصهرته وجعل هذا التراث في قالب عربي أصيل يميزها عن غيرها من الحضارات، " فقد امتازت الحضارة الإسلامية برحابة الصدر إزاء

الحضارات الدخيلة، مع القدرة على التكيف مع هذا الدخيل، أو نبذه ورفضه، إذا لم يقبل التكيّف"[54].

وبناء على هذه المقولة فالحضارة الإسلامية هي حضارة بناء وتشييد لا تغلق الأبواب في وجه الثقافات الواردة، ولكنّها لا تفقد أصالتها حين الامتزاج بهذه الثقافات.

وخلاصة القول إنّ التواصل الحضاري بشكل عام هو نشاط بشري يكشف عن أنّ الحضارات نمت وتطورت نتيجة التبادل كما ورد في القول:" إنّ الحضارة أخذ وعطاء"[55]، وقد يحدث ذلك بفعل التواصل المباشر وغير المباشر وهذا شأن جميع الحضارات دون استثناء.

---

[54] التواصل الحضاري والحفاظ على الذاتية، سعد الدين سيد صالح: 10

[55] تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، فخري خليل النجار، دار الصفاء للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 2009: 159



" وضعية أوروبا في العصر الوسيط "

1. الإرهاصات الأولى لنشأة المجتمع الأوروبي المسيحي
2. الإمبراطورية الرومانية وعوامل سقوطها
3. النظام الإقطاعي
4. النظام الطبقي في المجتمع الأوروبي
5. الكنيسة في العصور الوسطى
6. أوروبا خلال النهضة الفكرية (ق 12 م)
7. مظاهر نهضة الفكرية (ق 12 م)

إنّ مجتمع العصور الوسطى هو المجتمع الذي تحول من النظام الروماني إلى المجتمع الأوروبي بعدما طرأ عليه تحويلات كثيرة بسبب تحوله من عبادة الوثنية إلى الديانة المسيحية، وبسبب الغارات الجرمانية [56] التي اجتاحت أوروبا، أو بسبب النظام الإقطاعي [57] الذي ساده، وأخيرا بسبب الحروب الصليبية التي كانت ظاهرة بارزة في العصور الوسطى ، فقد "جاءت العصور الوسطى بعد العصر القديم لتقتطع من عمر البشرية أكثر من عشرة قرون من الزمان تقريبا، وظلّ اصطلاح العصور الوسطى يطلق على الفترة الممتدة بين سنة 476 ميلادية ، وهي السنة التي سقطت فيها الإمبراطورية الرومانية في الغرب الأوروبي ، وسنة 1453 ميلادية وهي السنة التي سقطت فيها القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية البيزنطية على أيدي المسلمين الأتراك،

---

[56] **الجرمان:** سكان شمالي ألمانيا وشواطئ البلطيق كانوا الخطر الأكبر على الإمبراطورية الرومانية في القرون الأولى للميلاد، انتشروا في غرب وشرق وجنوب أوروبا غازين وفاتحين.

[57] **عصر الإقطاع:** وهو النظام الاقتصادي والسياسي في أوروبا طوال تلك الفترة وظلّ سائدا لمدة طويلة من القرن التاسع الميلادي إلى القرن الرابع عشر الميلادي، وكان نتيجة طبيعية لانهيار الإمبراطورية الرومانية وهو نظام سياسي في جوهره، فمن يملك الأرض هو الحاكم، والقوة الاقتصادية الضاربة في تلك الفترة هم أصحاب النفوذ والسلطان وهم ملاك الأراضي .

والواقع أنّنا لا نستطيع أن نضع حدّا فاصلا أو تاريخا معينا يؤكّد نهاية عصر وبداية عصر آخر لأنّ الأحداث متداخلة بطبيعتها"[58].

أمّا أوّل من أطلق اصطلاح العصور الوسطى أو العصر الوسيط فهم " الأدباء الإنسانيون" الإيطاليون في القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين، وقد نظر الإنسانيون إلى الثقافة الكلاسيكية على أنّها ثقافة راقية وأعجبوا بها، بينما نظروا إلى الفترة الزمنية المحددة بسقوط "روما"، وسقوط "القسطنطينية" على أنّها فترة جهل وظلام مرّت بها أوروبا[59].

و من تمّ، فالعصور الوسطى جاءت بعد العصر القديم، وإن كانت هناك خصائص عامة لفترة الانتقال التي انسلخت خلالها ملامح العصور الوسطى من العصور القديمة، أبرزها انحلال المجتمع الروماني، وتأسيس الممالك الجرمانية، واعتراف الإمبراطورية الرومانية بالمسيحية واتخاذها ديانة رسمية، ونقل عاصمة الإمبراطورية إلى القسطنطينية سنة 330 ميلادية، ويمكن أن نلمس فترة الانتقال بالرجوع إلى الوراء عند مستهل القرن الرابع، دون أن نرتبط خلاله بسنة معينة تحدد بها مطلع العصور الوسطى.

---

[58] العصور الوسطى الأوروبية، رؤية في المصادر والنصوص التاريخية وعمليات التعليق والترجمة، محمد عبد الشافي المغربي، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر الإسكندرية، ط1، 2004م: 19

[59] قراءة في تاريخ وحضارة أوروبا العصور الوسطى، أشرف صالح محمد سيّد، شركة الكتاب العربي الالكتروني، لبنان، ط 1، 2008: 11

ولعلّ أشد عصور التاريخ تعقيدا وتنوعًا وأهمية، ه و تاريخ العصور الوسطى، فدراسة هذه الحقبة من التاريخ تتناول تشكيلة ضخمة من الشعوب والنظم والحضارات؛ وهي تشكيلة تعبّر عن جانب مهم من جوانب تطور التاريخ البشري، فضلا عما تحويه من كثير من أصول الحضارة الحديثة.

ذلك أنّ القرون الوسطى تمثل العصر الذي ظهرت فيه بوضوح مظاهر الاختلاف بين الشرق والغرب، وبين بلاد الشمال وبلاد حوض البحر المتوسط، وبين القديم والجديد، وبين التيارات الدينية والدنيوية؛ وبين الأفكار المثالية والحقائق الواقعية[60]، هذا إلى أنّ توسط مركز القرون الوسطى من الناحية الزمنية، وارتباطها الشديد بالعصور القديمة من ناحية وبالعصور الحديثة من ناحية أخرى، جعل لها مكانا بارزا في تطور التاريخ البشري الذي امتاز دائما بلستمرار حلقاته واتصالها.

غير أن هناك مجموعة من الباحثين الغربيين من " ينظرون إلى العصور الوسطى في أوروبا نظرة تختلف كثيرا عن نظرتنا، فيرمونها بالجمود والمحافظة، بل بالظلمة الموحشة والجهل المطبق، فهم لا يرون في العصور الوسطى إلا بربرية القوط وهمجية الوندال وأشباههم من شعوب الجرمان؛ ولا

---

[60] حضارة ونظم أوروبا في العصور الوسطى، سعيد عبد الفتاح عاشور، دار النهضة العربية للطباعة، بيروت، د.س، د.ط: 09 (بتصرف)

يريدون أن يربطوها إلا بتزمت الكنيسة وفوضى الحروب والغارات، واستبداد الحكام والأمراء"[61].

ومن الواضح أنّ هذه النظرة تتجاهل ظاهرة التفاوت الحضاري بين مختلف أنحاء أوروبا، والتغيرات الاقتصادية ال مهمة التي ألمّت بالمجتمع الأوروبي في العصور الوسطى، وأثر تدفق التيارات الجديدة التي تحمل العلم والمعرفة من الشرق، هذا فضلا عمّا في هذه النظرة من تنكّر صريح لما حدث في العصور الوسطى من حركات استهدفت إحياء الحضارة القديمة وابتكار عناصر حضارية جديدة ميّزت تلك العصور وأعطتها طابعاً حضارياً خاصاً.

1/الإمبراطورية الرومانية وعوامل سقوطها:

إنّ الفترة التي سبقت العصور الوسطى في أوروبا شهدت عدّة قوى سيطرت على العالم ومن أبرز هذه القوى الإمبراطورية الرومانية، وما يميز هذه الإمبراطورية هو قوّتها السياسية والعسكرية والاقتصادية والثقافية، وكذلك بقاؤها لفترة طويلة[62]. أمّا بالنسبة لتسمية الروم فقد عرّفها المسعودي بقوله: " نازع الناس في الروم ولأية علة سموا بهذا الاسم، فمنهم من قال سموا روما لإضافتهم إلى مدينة رومية واسمها روماس بالرومية، وعرب هذا الاسم فسموا

---

[61] المرجع السابق: 09

[62] ينظر: محاضرات في تاريخ أوروبا القرون الوسطى، طاعة سعد: 23

من كان بها روما وكذلك الروم في لغتهم لا يسمون أنفسهم ولا يدعوهم أهل الثغور إلا رومنيس، ومنهم من رأى هذا الاسم اسم الأب وهو روم بن سماحلين بن هربان بن عقلا بن العيص بن إسحاق بن إبراهيم الخليل عليه السلام، ومنهم من رأى أنهم سموا باسم جدهم وهو رومي بن ليطن بن يونان بن يافث بن بريه بن سرحون بن رومية بن مريط بن نوفل بن روين بن الأصفر بن اليغز بن العيص بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام"[63].

والواقع أنّ البدايات تعود إلى الغزوات الجرمانية، فقامت القبائل الجرمانية بمهاجمة الأراضي الرومانية، " والرأي السائد لدى أكثر الناس عن الغارات البربرية الكبرى هو أنّ الأقوام الجرمانية والتتارية انثالت في القرنين الرابع والخامس على الإمبراطورية الرومانية وهي في حالة احتضار"[64].

ومن تمّ فإنّ من بين الأسباب التي أدّت إلى انهيار الإمبراطورية الرومانية هي الغزوات الجرمانية البربرية لأنّها كانت السبب المباشر لهذا السقوط، مع العلم أنّ معظم الجرمان كانوا شعبا فظا، وأطلق عليهم الرومان اسم " الهمجيين

[63] أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تقديم محمد السويدي، ج 1، المؤسسة الوطنية للنشر، 1989م: 401
[64] تاريخ العصر الوسيط في أوروبة، نور الدين حاطوم: 14

البرابرة "[65]، وكانوا محاربين شجعانا، يعتمدون على الصيد واستخدموا أنماطا مختلفة في الزراعة، وعبدوا الآلهة، واهتمت فئة قليلة منهم بالكتابة والقراءة .

أمّا الإمبراطورية الرومانية فقد أضاعت الكثير من قوتها الكبيرة، ولم يكن بمقدور جيوشها الدفاع عن حدودها الطويلة، فقد هاجم القوط الغربيون إسبانيا، وبدأ الانجليز والجوت والسكسون في الاستيطان ببريطانيا، وأسس الفرانكيون(الفرنجة) مملكة لهم في بلاد الغال (فرنساحاليا) وهاجم القوط الشرقيون إيطاليا، كل هذاوقع تحديدا في القرن الخامس[66].

فالغزوات البربرية قسّمت معظم الإمبراطورية الرومانية الهائلة إلى ممالك متعددة، كان البرابرة لا يدينون بالولاء إلّا لزعماء قبائلهم، واحتفظت كلّ قبيلة بقوانينها وعاداتها الخاصة، ولا خلاف أنّه كانت توجد هناك أسباب أخرى مختلفة معقدة أدّت إلى سقوط هذه الإمبراطورية، ويمكن تلخيص أهمّ العوامل التي دعت إلى الانهيار في النقاط الآتية:

1 – التفكك الإداري:

لقد تكوّنت الإمبراطورية الرومانية من عدّة مقاطعات، تتمتع كل مقاطعة بنظمها الإدارية وتختلف عن غيرها، وقد أدى هذا إلى تفككها، كذلك أدى نظام

---

[65] ينظر: قراءة في تاريخ وحضارة أوروبا العصور الوسطى، أشرف صالح محمد سيّد: 12
[66] المرجع السابق: 13

الحكم الثنائي الذي نادى به الإمبراطور أوغسطس [67]، والذي اقتسم بمقتضاه مجلس السناتو السلطة مع الإمبراطورية إلى تطور الوضعية نحو الأسوأ[68].

2- الأخطار التي هدّدت حدود الإمبراطورية:

وتتمثل هذه الأخطار في الساسان الفرس والبرابرة والجرمان، الذين شرعوا في التضييق وفرض الحصار على الإمبراطورية، وكانت أسرة الساسانيين من ألدّ أعداء روما طوال أربعة قرون من الزمان، " كما تزايدت هجمات البرابرة على الحدود الشرقية والشمالية" [69]. وعليه لم يعد بوسع روما نجدة حدودها المترامية الأطراف.

3 - انغماس الرومان في حياة الترف والملذات:

لقد انغمست الطبقة الحاكمة في أواخر عهد الرومان في اللهو والترف، وتركت مقاليد أمور البلاد في أيدي الجرمان الذين تغلغلوا في أجهزة الدولة حتى وصلوا إلى أعلى المناصب وأصبحوا قوّة تشكل خطرا على الإمبراطورية.

4- الاختلافات الحضارية واللغوية والمذهبية بين شقي الإمبراطورية:

---

[67] أوغسطس: ولد الامبراطور أوغسطس سنة 63 ق. م، هو مؤسس الإمبراطورية الرومانية، وأوّل حاكم لها، حيث بقي في الحكم 27 سنة ، توفي سنة 14 م.

[68] تاريخ العصور الوسطى الأوروبية وحضارتها، جوزيف نسيم يوسف: 55

[69] المرجع نفسه: 57

لعل من أهمّ الأسباب التي عجلت بانهيار الإمبراطورية، انقسامها إلى قسمين مختلفين:

- القسم الغربي وقد سادت فيه اللغة والثقافة اللاتينية.
- القسم الشرقي وكان يتكلم اليونانية بحكم موقعه الجغرافي.

وكان هذا الانقسام ظاهريا في أوّل الأمر عندما كانت الحكومة قوية إلا أنّه سرعان ما تفاقم خطره حتى أصبح مع الزمن حقيقة واقعة أثمرت اختلافا في العادات والتقاليد.

5- ظهور المسيحية واعتناق الرومان لها:

كانت الديّانة المسيحية أخطر منافس للعبادات الوثنية القديمة، وكان أوّل ظهور لها في الشرق ثم انتقلت إلى الغرب الأوروبي، حيث وجد فيها العالم الروماني المتنفس بسبب الأزمات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، فقد كانت غنية برموزها وطقوسها التي تدعو إلى الزهد وتبشر الأمل، وكان الغرب أحوج إلى هذه النواحي في فترة القلق والاضطراب، وعليه وبسبب دعوة المسيحية إلى وحدانية الله دون الأباطرة اعتبروها خطرا يهددهم، وقد حاولوا طمس معالمها، فوقع النزاع بين النسّاك والحكّام، لكن أدى ذلك إلى الاعتراف بها نهائيا وظهور

الصراع العنيف بينها وبين الوثنية القديمة ممّا نتج عنه تفكك في الإمبراطورية نفسها[70].

2/النظام الإقطاعي:

إنّ النظام الإقطاعي بمعناه المعروف في القرون الوسطى لا يكون عصرا مستقلا قائما بذاته، إنّما هو مرحلة من مراحل التطور والنمو البطيء التي مرّ بها المجتمع الغربي في نهاية الفترة الوسيطة من تاريخه، وقد شمل هذا النظام المجالا السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

1 تعريف الإقطاع:

وردت تعاريف كثيرة متباينة عن النظام الإقطاعي، وذلك راجع إلى طبيعة النظام السائد في كل بلد، فمثلا النظام الذي عرف في انجلترا يختلف في بعض جزئياته ودقائقه عن مثيله في فرنسا أو إسبانيا، وهكذا ....، والإقطاع في تعريف مبسط هو" ذلك النظام الذي يرتبط بالأرض ارتباطا وثيقا، وهذه الأرض كان الإمبراطور يهديها للملوك، وهؤلاء يمنحونها للأشراف والنبلاء، وهؤلاء

---

[70] ينظر: المرجع السابق: 60

لمن دونهم، وهكذا إلى أن تصل إلى رقيق الأرض في أسفل السلم الإقطاعي"[71]، بحيث يتوارث حق استعمال هذه الأرض الابن عن أبيه بعد أن يتعهد القيّام بواجباته الإقطاعية تجاه سيده المتبوع، كما عُرّف الإقطاع بأنه: "تجزئة الملكية والسيادة، لأنّ المتقاسمين الأمير وتابعه، أو الملك وتابعه يعيشان عيشة مشتركة ولا يمكن تصور أحد الشريكين دون الآخر"[72].

2 – أركان بناء المجتمع الإقطاعي:

لرسم صورة واضحة للنظام الإقطاعي كنظام قائم بين النّاس في المجتمع، يجب الإشارة إلى أركان ثلاثة رئيسة تُكوّنه وهي: الجماعات القروية، ونظام الدومين، وأحوال عصر نمو الإقطاع.

أ – الجماعات القروية:

وتتمثل في (الفلاح والقرية أو المجتمع القروي ونظام فلاحة الأرض)، حيث كانت الزراعة وفلاحة الأرض قوام المجتمع، وكان غالبيته من الفلاحين الذين اعتمد عليهم ذلك المجتمع اعتمادا كليّا، ويكفي أنّه من الفلاح استمدّ

---

[71] المرجع السابق: 98
[72] تاريخ العصر الوسيط في أوروبة، نورالدين حاطوم: 349

البابوات ورجال الدين والملوك وسائر سادة المجتمع الإقطاعي حاجياتهم ولوازمهم من مأكل ومشرب وملبس، وكانت القرية هي الدائرة التي عاش فيها الفلاح معتمدا نظاما معيّنا في عمله.

ب - نظام الدومين:

وتتمثل في (الدومين ونظام الدومين وأحوال الأفراد الذين يعيشون فيه)، ومعنى الدومين في مصطلح العصر الوسيط هو أملاك السيّد الإقطاعي من أراض وأملاك وغيرها، وقد ساد هذا النظام اعتبارا من القرن الخامس فصاعدا.

ج- عصر نمو النظام الإقطاعي:

استغرق النظام الإقطاعي في طور النمو القرنين التاسع والعاشر، وكان الغرب الأوروبي خلال هذين القرنين مسرحا لأحداث سياسية واضطرابات

اجتماعية كبيرة، ولفهم هذا الركن يمكن تقسيمه بدوره إلى عصور ثلاثة هي عصر التمهيد للنظام الإقطاعي وعصر نموه وعصر نضجه واكتماله[73].

3/ النظام الطبقي في المجتمع الأوروبي:

تميّز المجتمع الغربي الوسيط بالنظام الطبقي الذي قسّم المجتمع إلى طبقات أفقية تتّسع تدريجيا كلما نزلنا إلى الأسفل، وقد أدّت إلى ظهور هذا النظام عدّة عوامل مختلفة ومتشابكة، ومن العبارات المأثورة التي تضيء النظام الطبقي في الغرب الأوروبي خلال القرن الوسطى قول ألفريد ملك إنجلتر الأنجلوسكسوني:

"The house of god is triple, some fight, others pray and others work .

وترجمة العبارة : بيت الله عبارة عن مثلث: بعضٌ يقاتلون، وبعض يصلّون، وبعضٌ يعملون"[74].

والمقصود من ذلك أنّ المجتمع المسيحي الغربي كان يتكون من ثلاث طبقات رئيسة هي: طبقة المحاربين أو المقاتلين، وطبقة رجال الدين أو المصلين و طبقة العاملين الكادحين.

---

[73] ينظر: تاريخ العصور الوسطى الأوروبية وحضارتها، جوزيف نسيم يوسف: 100

[74] المرجع السابق: 89

1 – الطبقة الأولى "المحاربون":

تتكون من الرجال الأحرار ومن الأشراف والنبلاء الذين اتخذوا من الحرب صناعة لهم، وخلال القرن التاسع تحولوا إلى القتال على ظهور الخيل وسمّوا بالفرسان (kinghts)، وأطلق على هذه الفترة " بعصر الفروسية"[75].

2 – الطبقة الثانية "رجال الدين":

تتألف هذه الطبقة من هرم تتّسع درجاته كلّما اتجهنا إلى الأسفل، وعلى قمّته البابا ثم يتلوه الكرادلة فرؤساء الأساقفة فالأساقفة ورؤساء الأديرة فرجال الدين هم عموما من كبار الكهنة وصغارهم والرهبان وغيرهم.

3 – الطبقة الثالثة " العاملون في الأرض":

وكانت هذه الطبقة تنقسم إلى فئتين: الرجال الأحرار وعبيد الأرض، أمّا الأحرار فقد كانت غالبيتهم من سكان المدن وقد باشروا مهنة التجارة والصناعة وكان لكل منهم نقابة ينتمي إليها تسمى " Guild " أو " unit "، ترعى مصالحهم وتقوم عليها.

أمّا الفئة الثانية فهي رقيق الأرض من المزارعين الذين كانوا أحرارا يملكون قطعا صغيرة من الأرض ويعملون فيها لحسابهم الخاص لا لحساب

---

[75] **عصر الفروسية:** العصر النبيل الأصيل كما يلقب، لأنّها تمثل القوة الضاربة فيا لجيش، والفارس هو الذي يدافع عن حقوق الضعفاء والمظلومين.

غيرهم من الفرسان ورجال الدين، ولكن كثرة الحروب والمنازعات دفعت المزارع الحرّ إلى أن يضع نفسه وأرضه وكل ما يملك تحت رحمة النبيل الإقطاعي حتى يعيش في أمن وسلام[76].

4/ الكنيسة في العصور الوسطى:

لقد كانت الكنسية القوة الحضارية الرئيسة في العصور الوسطى في أوروبا الغربية، فقامت تدريجيا بتنصير البرابرة، وسافر أناس أطلق عليهم المنصّرون مسافات طويلة لنشر النصرانية، وكانت فكرة الدّين في هذه الفترة مسيطرة على عقول النّاس وأذهانهم وكذلك تصرفاتهم، فليس هناك تفكير غير تفكير الكنيسة ولا يتصدى أحد إلى تفسير الكتاب المقدس غير رجل الدين، فهو المسموح له بالتفسير ووعظ الناس، وقد استغلت الكنيسة ذلك لتحقيق نفوذها، وقد تولى البابوات والأساقفة، وآخرون من كبار النصارى وظائف حكومية عديدة، بعد أن فقد الأباطرة الرومان السلطة، وجمعت الكنيسة الضرائب واحتفظت بالمحاكم التشريعية للقضاء على المجرمين، هذا فضلا عن المباني الكنسية التي كانت مثابة للمرضى ونزلا للمسافرين. وكان الرهبان قد تخلوا عن الحياة الدنيا اعتقاداً منهم بأنّها الطريق لخدمة الله بالصلاة والعمل، وساعد

---

[76] ينظر: المرجع السابق: 93

رهبان بعض الأديرة[77] ورجال الدين في الكاتدرائيات [78] على استمرار القراءة والكتابة باللغة اللاتينية، وحافظوا على عدد كبير من المخطوطات القديمة النفيسة، كما أنّهم قاموا بتشييد معظم المدارس في أوروبا. ولكن في المقابل هناك فترة في تاريخ أوروبا العصر الوسيط أطلق عليها عصر الظلام، فما المقصود بها؟

* **عصر الظلام:** الأوروبيون هم من أطلقوا هذه التسمية على الفترة الممتدة من عام 1268م، وهي السنة التي تمّ فيها إعدام كوترادينو وهو آخر إمبراطور روماني، إلى سنة 1519م[79].

وممّا تجدر الإشارة إليه أنّ الكنيسة كانت تقرر أن الأرض مركز الكون والشمس تدور حولها ، وعندما عارض ذلك " جال يليو" اعتبر زنديقا،" وسجّل التاريخ أيضا ذلك الصراع العنيف بين المسيحية، ورجال العلم ورجال الفكر الحرّ، وليست مأساة " جاليليو" بالحادث الوحيد، فالكثير من رجال العلم والفكر أحرقوا أو شنقوا أو زُج بهم في أعماق السجون، وكل ذلك باسم الدين" [80]، فقد

---

[77] **الأديرة** : مفردها دير، والدير خان النصارى (تاج العروس)، وكذلك دار الرهبان والراهبات (المعجم الوسيط)، وجمعها: آديار، أديرة، وديورة (قاموس المعاني)

[78] **الكتدرائيات:** كنيسة كبيرة تكون مقرا لإقامة البابا، كلمة مشتقة من الاسم اليوناني (كاتيدرا) ومعناه كرسي، أو عرش المطران.

[79] قراءة في تاريخ وحضارة أوروبا، أشرف صالح محمد سيّد: 28

[80] أوروبا والإسلام، عبد الحليم محمود، منشورات المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، د ط، د س: 23

حجرت الكنيسة على الفكر الإنساني في البحوث العلمية والتصرفات الشخصية ، فالبابوية تحكم على الملك أن يطلق زوجته برغبة الكنيسة، فلم يكن مسموح ا لأي إنسان أن يفعل أي شيء خارج رغبة الكنيسة، وعلماء الإنسانيات جعلوا القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين فترة مظلمة حضاريا.

5/ أوروبا خلال نهضة القرن الثاني عشر الميلادي:

لقد ظهرت نهضة القرن الثاني عشر بين حقبتين الأولى سبقتها وهي معروفة بالنهضة الكارولنجية، أمّا النهضة التي جاءت بعدها فهي نهضة القرن الخامس عشر.

أ – النهضة الكارولنجية:

قامت النهضة الكارولنجية خلال القرن التاسع ميلادي، ولعل أوّل ما يلاحظ على هذه النهضة أنّها مصطنعة، حدثت بفعل فاعل، وبعبارة أخرى قامت هذه النهضة، لأنّ شارلمان [81] أراد لها أن تقوم، وأراد أن تكون هناك نهضة، فهي ليست نهضة تلقائية شاملة، منبعثة من عوامل ومؤثرات حضارية

---

[81] **شارلمان:** (742م، 814م

)ويسمىتشارلزالأكبر،أشهرحكامالعصورالوسطى،وشخصيةرئيسيةفيالتاريخالأوروبي،وقداحتلّجزءاكبيرامنأوروباالغربيةووحدهافيامبراطوريةواحدة عظيمة،أحي شارلمانالفكرالسياسيوالثقافيفيأوروبا،الذي كان قد اندثر بعد سقوط الإمبراطورية الرومانية الغربية في القرن الخامس الميلادي، وقد وضعت أنشطته حجر الأساس للحضارة الأوروبية التي ازدهرت في أواخر العصور الوسطى. أدخل نظام الإقطاع، الذي أصبح النظام الأساسي لأوروبا سياسيا وعسكريا لأربعمائة سنة.[81]

كامنة؛ وإنّما ولدت في بلاط الملك ونمت وترعرعت فيه كما ورد ذكرها " وظلت ربيبة شارلمان وخلفائه المباشرين إلى أن مات وخمدت ج ذوتها بالسرعة التي ظهرت بها "[82].

ولعلّ هذا هو السبب الذي جعل النهضة الكارولنجية تبدو إذا قورنت بغيرها من الحركات الحضارية في العصور الوسطى فإنّها تبدو ضيقة الأفق قصيرة العمر، لأنّها ارتبطت في مولدها ونشأتها برجل، وبالتالي لم تعش كثيرا بعد وفاته.

تعتبر النظم الاقتصادية والاجتماعية والعلمية في هذه المرحلة رغم بساطتها بداية لحضارة أوروبا في العصور الوسطى وهي التي أضاءت الطريق لحضارات أخرى تلتها على الأرض الأوروبية، وإذا كان من المعروف أنّ الحضارة لا تبدأ من فراغ فإنّ الحضارة الكارولنجية قد استطاعت أن تتجاوب مع هذا الميراث في حركة ناشطة تجمعت منذ كانت هذه الدولة في شمال أوروبا. وقد ساعد على قيام هذه الحضارة فكرة الإمبراطورية في أوروبا التي أصبح شارلمان على رأسها، كما أنّ البابوية في روما قد ساعد كثيرا على نمو

---

[82] حضارة ونظم أوروبا في العصور الوسطى، سعيد عبد الفتاح عاشور: 51

هذه الحضارة عندما اعتمدت باباوية روما كثيرا على حماية الامبراطور شارلمان[83].

و من تمّ فإنّ الصبغة الدينية كان لها تأثير في الحضارة الكارولنجية، بالإضافة إلى النهضة العلمية التي أقامها شارلمان داخل الإمبراطورية وبعض الجوانب الفنية والاقتصادية الأخرى.

و على الوغم من الظروف التي مرّت بها الحضارة الكارولنجية فـإنها تعدّ ممهدا لحضارات جاءت بعدها، بسطت لها الطريق، وأنارت لها الدرب.

ب – ملامح نهضة القرن الثاني عشر الميلادي:

إنّ التطور السياسي الذي حدث في غرب أوروبا في القرن الثاني عشر لما صحبه من حروب صليبية ، أثمر تلك النهضة الثقافية التي يطلق عليها اسم نهضة القرن الثاني عشر الميلادي، وهي مرحلة استحوذ الغرب الأوروبي فيها على المنجزات الثقافية التي عرفها اليونان والعرب، كما استحوذ في الوقت ذاته بعد تدهور الدولة البيزنطية على الدراسات القديمة وأخذ في تطوير ثقافته الخاصة، وأحيا دراسات العلوم والقانون والآداب، وأخذ في تدريسها في مدارس الكاتدرائيات وكذلك في المؤسسات العلمية الجديدة.

---

[83] حضارة أوروبا في العصور الوسطى، محمد سعيد عمران: 17 (بتصرف)

وكانت نهضة القرن الثاني عشر الميلادي شاهدا واضح ا على التطور الذي حدث في أوروبا في هذا العصر، إلى جانب ما ظهر فيه من إحياء التجارة، ونشأة المدن، وتطور الملكيات المركزية الوطنية وقيَام الحركة الصليبية، وإنّ من أهم شواهد هذه النهضة الملموسة، كانت الكاتدرائيات القوطية في فرنسا وألمانيا وانجلترا [84]. هذا وقد شهدت هذه النهضة كذلك نشأة النظم البرلمانية، وقيّام الجامعات، وظهور مؤلفات أدبية باللغة اللاتينية، واللغات الوطنية، كما عرفت تطورا في مجال التعليم والفلسفة والقانون والتدوين التاريخي وكذلك التطور في ميدان الأدب والمنجزات الفنية لتلك الفترة من العصور الوسطى.

ج- أسباب قيام نهضة القرن الثاني عشر الميلادي:

لقد ساعد الاستقرار النسبي الذي تمتع ت به بلاد الغرب بعد انتهاء الأخطار والتهديدات التي كانت تحوم حولها من ناحية، واستقرار الأحوال والأوضاع السياسية والاجتماعية والدينية من ناحية أخرى على التطور والتقدم الحضاري، فأخذ عدد من ملوك الغرب يشجعون النشاط الفكري.

---

[84] المرجع السابق:212

كما نستطيع أن نلتمس أسبابا أخرى أدّت إلى قيّام نهضة أوروبية شاملة في القرن الثاني عشر، ومن هذه العوامل ما ظهر في أواخر القرن الحادي عشر من تقدم في النشاط التجاري –لا سيما في شمال إيطاليا – وما صحب ذلك النشاط من نمو المدن وتقدم الحضارة والحياة الفكرية، فليس هناك شك في أنّ الانتعاش الاقتصادي والتقدم الاجتماعي الذي عرفته تلك المدن أدى إلى شعورها بالحاجة إلى تنظيم قوانينها لتحديد نظمها الإدارية من ناحية، وتحديد علاقاتها مع غيرها من الوحدات السياسية من ناحية أخرى؛ الأمر الذي ساعد في إحياء الدراسات القانونية التي ظهرت في إيطاليا في القرن الثاني عشر ، والتي تعتبر من أهم مظاهر النهضة الأوروبية في ذلك القرن. كذلك أدى النشاط الاقتصادي لهذه المدن إلى ظهور رؤوس الأموال واتساع نطاق الأعمال المصرفية بشكل لم تعهده أوروبا من قبل[85].

ولقد قامت الكنيسة الكاثوليكية بدورها في قيام هذه النهضة ، وكان ممّا فعلته، الإنفاق على الرحلات التي قام بها رجال الدين، وكذلك ما أظهرته من اهتمام بجمع الكتب ونسخها، كما صاحب هذه الفترة ازدياد نفوذ البابوية

---

[85] حضارة ونظم أوروبا في العصور الوسطى، سعيد عبد الفتاح عاشور: 119

وانتشار حركة الحجاج المسيحيين وتنقلهم، مما أدى إلى تعرف الناس إلى مراكز الثقافة المختلفة في الغرب والشرق وحدوث اللقاءات والروابط الفكرية، وظهر في ذلك الكثير من ملاحم الحجاج وأغاني المآثر.

وكان لحركة الاسترداد التي قام بها الأوروبيون المسيحيون على حساب المسلمين في اسبانيا، أثرها في هذا المجال، فقد استولى المسيحيون على عدد من المدن الاسبانية كطليطلة وسرقسطة، وهناك عثروا على العديد من المخطوطات العربية في مختلف العلوم والقانون. وقد اتجه الغربيون من المفكرين والطلبة المقبلين على العلم والمعرفة إلى هذه المنابع ليترجموا علوم العرب وكتبهم بغية الاستفادة منها.

ويرجع الفضل الكبير في تقدم الدراسات الجديدة في غرب أوروبا منذ ذلك الحين إلى علوم العرب وانجازاتهم الضخمة في هذا المجال ، ولايزال أفضل مرجع لدراسة تاريخ نهضة القرن الثاني عشر هو الكتاب الذي ألفه المؤرخ هاسكنز C.H. Haskins والذي يعرف باسم Renaissance of the The Twelfh Century[86]

---

[86] حضارة أوروبا في العصور الوسطى، محمد سعيد عمران: 217

وأشير مرة أخرى إلى ا   لأندلس لأنها همزة وصل بين الغرب والعرب المسلمين، وهي محور بحثنا هذا فيما يتعلق بالتواصل المعرفي بين أوروبا المسيحية والمغرب الإسلامي، فإسبانيا التي فتحها المسلمون وأقاموا فيها دولة إسلامية كبيرة أصبحت وطنا جديدا للثقافة العربية، وازدهرت فيها مختلف العلوم والدراسات التي عرفها العرب سواء في الأدب والفلسفة أو في الكيمياء والطب والفلك والرياضيات والموسيقى وغيرها، لذلك أخذ طلاب العلم يفدون إلى الأندلس من مختلف البلاد الأوروبية، وبخاصة إيطاليا وفرنسا –لينهلوا من ذلك المنهل العلمي الصافي، مما ساعد على ازدهار النهضة في القرن الثاني عشر، ولم يقلل من ذلك النشاط العلمي جهود مسيح   يي إسبانيا في استرداد أراضيهم من المسلمين، وهي تلك الجهود التي بدأت بقيام بعض الممالك المسيحية في شمال ايبريا– مثل أرغونة وقشتالة وليون.[87]

ساعدت هذه العوامل وغيرها على قيام نهضة أوروبية عظيمة في القرن الثاني عشر، لا تقل أهمية في بناء صرح الحضارة الأوروبية عن نهضة القرن الخامس عشر أو عن الثورة الفرنسية الكبرى.

[87] حضارة ونظم أوروبا في العصور الوسطى، سعيد عبد الفتاح عاشور: 118

فإذا تركنا النهضة الكارولنجية لنقارن بين نهضتي القرن الثاني عشر والقرن الخامس عشر؛ فإننا نجد الأخيرة ارتبط مولدها ببلد واحد وهو إيطاليا، ومن إيطاليا انتشرت وانتقلت تدريجيا إلى بقية بلاد غرب أوروبا، أمّا نهضة القرن الثاني عشر فلم يرتبط مولدها ببلد معيّن؛ فإذا كانت إيطاليا قد أسهمت في هذه النهضة عن طريق رعاية الدراسات القانونية وعن طريق الترجمة عن اليونانية؛ فإنّ فرنسا هي الأخرى قامت بدور رئيس في الدراسات الفلسفية واللاهوتية. ويكفي أن نذكر أنها شهدت نشأة جامعة باريس أم الجامعات في أوروبا، كما ازدهر بها الفن القوطي. هذا في الوقت الذي قامت اسبانيا بدور المعبر الرئيس في نقل التراث العربي إلى غرب أوروبا، أمّا إنجلترا وألمانيا فقد أسهمتا أيضا في نهضة القرن الثاني عشر ولو بنصيب محدود.

د – مظاهر نهضة القرن الثاني عشر الميلادي:

1 – الكتب والمكتبات:

وقبل التطرق إلى النشاط الفكري في غرب أوروبا في القرن الثاني عشر، لابد من أن نلقي نظرة على أحوال الكتب والمكتبات في ذلك العصر؛ لأنّه من المعروف أنّ دراسة الحياة الفكرية لعصر من العصور تتطلب الوقوف على

نوع الكتب التي تمّ ت دراستها في ذلك العصر، وكيفية تداولها واستعمالها ونسخها، فإذا اطلعنا على قائمة بأسماء الكتب التي وجدت بمكتبة أحد الأديرة في القرن الثاني عشر، فإننا نستطيع بسهولة أن نكوّن فكرة عامة ع ن المستوى الثقافي لأهل ذلك الدير.

والواقع أنّ أهالي الغرب في العصور الوسطى لم يعرفوا المكتبات المنظمة بالمعنى الدقيق الذي نعرفه اليوم. فعندما يُذكر لفظ " مكتبة" في تلك العصور كانوا لا يقصدون به بناء مستقلا أو حتى غرفة قائمة بذاتها مخصصة لحفظ الكتب والاطلاع عليها، فاللفظ الشائع لديهم للتعبير عن المكتبة كان (Armorium) ومعناه خزانة الملابس أو قائمة نسخ الكتب[88].

هذا إلى أنّ الكتب الخاصة بالدير أو الكنيسة لم تتجاوز مجموعة صغيرة توضع على رفوف الحائط، ويقدر عددها ببضع عشرات، وإن كانت تصل إلى عدّة مئات في مكتبات بعض الأديرة الشهيرة مثل دير كوربي (Corbie)[89].

وكانت هذه الكتب تكفي حاجة الرهبان للقراءة. وهذا ما نتج عنه كثرة الاهتمام

---

[88] حضارة أوروبا في العصور الوسطى، محمود سعيد عمران: 218

[89] حضارة ونظم أوروبا في العصور الوسطى، سعيد عبد الفتاح عاشور: 125

بالكتب حتى قال المعاصرون : " دير بدون كتب كحصن أو قلعة بدون ذخيرة ".[90]

و من تمّ فإنّ هذه المجموعات الصغيرة من الكتب الموجودة في مكتبات الأديرة والكنائس أخذت في النمو إمّا عن طريق الشراء والإهداء أو النسخ؛ فشراء الكتب لم يكن ميسورا حينئذ لصعوبة عملية النسخ اليدوي، وكذلك لم تكن عادة شراء الكتب شائعة في العصور الوسطى لعدم وجود نسّاخ وعدم وجود أسواق عامة لشراء الكتب وبيعها في أوروبا، وإذا وجدت هذه الأسواق في القرن الثاني عشر فإنّها كانت قليلة في البيئات العلمية مثل باريس وبولونيا حيث ظهرت أولى الجامعات الأوروبية في العصور الوسطى، ولهذه الأسباب ظلّت المخطوطات نادرة الاستعمال، لاسيما كتب الترتيل الكبيرة التي تحوي الترانيم الدينية، حتى إنّه ورد الحديث عن شراء إنجيل كبير في ذلك العصر بمبلغ 10 تالنت[91]، أي ما يقرب ألفين ومائة وخمسون جنيها [92]، كذلك تمّ بيع كتاب ديني

[90] المرجع نفسه: 125

[91] التالنت talent : مثقال استخدمه اليونانيون القدامى في الوزن ويبلغ من 20 إلى 26 كيلوغرام تقريبا، وقد أطلق الاسم أيضا على العملة التي يبلغ وزنها تالنت من الذهب أو الفضة، ومعنى هذا أنّ قيمة عملة التالنت تراوحت ما بين 213، 235 جنيها.

[92] المرجع نفسه: 126

آخر يحوي مجموعة من الصلوات والطقوس مقابل مزرعة كروم، كما اشترى أسقف برشلونة مجلدين من يهودي مقابل منزل وقطعة أرض.[93]

إن عملية النسخ كانت صعبة في هذا العصر ، حتى إنّه ورد الكثير عن الكتّاب الصبورين الذين يضطرون للكف عن النسخ لتورم أصابع أيديهم من كثرة الكتابة وشدّة البرد. ولا بأس أن نتذكر أنّ الكتابة حينئذ كانت عبارة عن نحت في الجلود المجففة، ممّا كان يتطلب جهدا كبيرا وصبرا لا ينفد. وكانت مهمة نسخ الكتب توكل إلى الرهبان في الأديرة والكنائس.

أمّا الكتب المهداة إلى الأديرة والكتدرائيات فكانت عادة تسجل الظروف المحيطة بإهدائها في سجلات الدير، وانحصرت هذه الظروف غالبا في دخ أحد الرهبان الجدد الدير وإهدائه مكتبته إليه، أو أن يقدم أحد المسافرين أو عابري السبيل بعض الكتب إلى الدير مقابل مايلقاه من أهله من حسن استقبال وكرم ضيافة، بالإضافة إلى وصية الكثيرين من أهل العلم بإهداء كتبهم عند وفاتهم إلى دير معيّن أو كنيسة معروفة، ونذكر على سبيل المثال كتدرائية روان(Rouen) فإنها قائمة طويلة بأسماء كتب أهداها إليها في القرن الثاني

[93] نفسه: 126

عشر رئيسا لأساقفة روتو(Rotou)، وفي سنة 1164م أوصى أسقف فيلب بايو (Bayeux) بمائة وأربعين مجلدا لدير بك (Bec).

أمّا من حيث شكل الكتب المنسوخة ومضمونها وترتيبها فهي متنوعة المعرفة، فهناك مكتبات في القرن الثاني عشر تضم مؤلفات جديدة إلى جانب مؤلفات قديمة، وقد تمّ الاعتماد في عمل فهارس المكتبات على الترتيب الموضوعي بصفة عامة ؛ فتبدأ باسم الكتاب المقدس ثم كتب العبادة والصلوات ثم كتب الآباء والقديسين، وقد كان الاهتمام بهذه الأنواع من تلك المكتبات أمرا طبيعيا يتماشى مع طبيعة التعليم الديني الذي استهدف أعداد رجال الدين، وكان يشمل التعليم غير الديني في ذلك العصر تلقين الفنون الحرة السبعة Seven Arts التي انقسمت إلى مجموعتين:

أ. المجموعة الثلاثية (Trivium): وتشمل النحو والبلاغة والجدل

ب. المجموعة الرباعية (Quatrivum) : وتشمل الموسيقى والحساب والهندسة والفلك[94].

و من تمّ فقد أصبحت مكتبات ذلك العصر تحوي بعض الكتب عير الدينية في هذه الموضوعات مثل مؤلفات النحوي اللاتيني برسكيان (prescian)، كما

---

[94] ينظر: حضارة أوروبا في العصور الوسطى، محمود سعيد عمران: 219

وجدت مؤلفات أخرى في المكتبات تتمثل في القانون الكنسي والقانون الروماني، وبتقدم نهضة القرن الثاني عشر واتساع دائرة النشاط العلمي، وجدت المؤلفات التي كتبها علماء ذلك القرن طريقها إلى مكتبات الأديرة مثل كتابات أنسلم (Anslem) وغيره[95].

هذا عرض للمكتبات الغربية في القرن الثاني عشر، فإذا قصرنا كلامنا على مكتبات الأديرة والكتدرائيات، فسبب ذلك هو أنّ هذين النوعين كانا أهمّ أنواع المكتبات في ذلك العصر. ومن المهم أن نلاحظ أنّ العصور الوسطى لم تعرف نظام المكتبات العامة الذي نعهده اليوم، كذلك لم تعرف المكتبات عندئذ نظام إعارة الكتب مثلما فعلت الجامعات بعد ذلك؛ وإذا وجدت بعض الحالات تعار فيها الكتب لنسخها ثم ردها فإنّ هذه الحالات ظلت قليلة، ومع تقدم الوقت قسمت الكتب إلى قسمين:

- قسم يوضع في خزائن أو صناديق مغلقة بالمفاتيح.
- وقسم يعرض للاطلاع مع الاحتياط بربط الكتب بسلاسل في المناضد لسلامتها وعدم ضياعها.

2 – إحياء الدراسات اللاتينية:

---

[95] المرجع نفسه: 219

تميزت نهضة القرن الثاني عشر ببروز جانبيْن من النشاط الفكري، هما الإحياء والتجديد.

فالمقصود بالإحياء هو إعادة بث الروح في الدراسات اللاتينية القديمة، وهي الدراسات التي ظلّت أصدق مقياس للنشاط الفكري في غرب أوروبا منذ سقوط الإمبراطورية الرومانية حتى بداية العصور الحديثة، ويمكن الإشارة إلى أنّ التراث الفكري اللاتيني لم يندثر تماما في وقت من الأوقات، وإنما كانت تزداد العناية به أو تقل تبعاً للمستوى الثقافي لكل عصر من عصور التاريخ الأوروبي.

إنّ ظاهرة الإحياء على مستوى الدراسات اللاتينية قد أحالت الدارسين إلى خلاف قديم مرجعه هو مدى معارضة بعض رجال الدّين في العصور الوسطى لمبدأ التعمق في الدراسات اللاتينية.

وقد تطور هذا الخلاف وأضحى المشكل قائما بدون حل حتى القرن الثاني عشر عندما تساءل أحد أساقفة كتدرائية أوتون Autun :" كيف يمكن تنقية

الروح وتهذيب النفس عن طريق قراءة حروب طروادة وجدل أفلاطون وأشعار فرجيل، وغيرهم ممن يصلون الآن نار جهنم "[96].

واستمرّ هذا التعارض حتى القرن الثاني عشر الميلادي ، ومن الشواهد على ذلك عدة محاولات للأدباء والمفكرين كما ورد " أنّ أهمّ إنجاز في هذا الميدان للمشروع القانوني جريشان الذي أقبل على تنظيم القانون الكنسي أواسط القرن الثاني عشر".[97]

و من تمّ فقد كانت أوّل مشكلة تعترضه، هي إذا كان من الواجب بالنسبة لرجال الدين تعلم العلوم الدنيوية أم لا؟، والحقيقة " أنّ بعض البابـاوات اعترفوا بأنّ معرفة هذه العلوم الدنيوية ضرورة لفهم الكتاب المقدس، إلّا أنّ هذه الإشكال والتعارض ظلّ دون أن يجد له حلا قاطعاً".[98]

ومن الأمور التي ظهرت في القرن الثاني عشر الاهتمام بالأدب اللاتيني وكذا الاهتمام بالمنطق والاتجاه العملي الجديد في الحياة، إلا أنّ محاولة فهم المنطق الجديد لأرسطو الذي انتشر في منتصف هذا القرن ، وانشغال المثقفين بأمور الجدل والفلسفة والمنطق قد حدّ نسبياَ من الاهتمام بالدراسات الأدبية.

---

[96] حضارة ونظم أوروبا في العصور الوسطى، سعيد عبد الفتاح عاشور: 122

[97] محاضرات في تاريخ أوروبا القرون الوسطى، طاعة سعد، دار قرطبة، الجزائر، 2012، ط 1 : 161

[98] حضارة أوروبا في العصور الوسطى، محمود سعيد عمران: 220

فقد أصبح الجيل الجديد من روَاد العلم والمعرفة يفخرون بمعرفتهم الكثير من الجدل والمنطق والفلسفة دون أن يضيعوا وقتهم في الأدبيات.

كما يتضح من خلال الاتجاه الجديد في أواخر القرن الثالث عشر، إهمال المدارس والجامعات الناشئة الأدب الكلاسيكي في برامجها وتوجيه جلّ عنايتها نحو الدراسات الفلسفية والقانونية والطبية، غير أنّه في الحقبة التي حظيت الآداب والدراسات القديمة بالعناية في القرن الثاني عشر، اتجهت هذه الحركة نحو دراسة المؤلفات اللاتينية لاسيما الشعر وشرحه، ودراسة قواعد اللغة ونحوها، ومحاولة إنتاج قدر كبير من الأدب اللاتيني شعراً ونثراً.

ومن أعلام هذه الحركة حنا سالسبوري (1117- 1180 م)، الذي كان من رجال الدين والسياسة والأدب والفلسفة جميعاً، حتى قيل إنّه لم يوجد كاتب في العصور الوسطى ضارعه في سعة أفقه وعمق اطلاعه وفهمه للأدب الكلاسيكي[99]

ويبدو أنّه تأثر تأثرا واضحا في أسلوبه بكتابات شيشرون ، الذي كان في نظر حنا سالسبوري أعظم كتّاب اللاتينية ، ورأى: " أنّه لا تنافر بين المسيحية

---

[99] حضارة ونظم أوروبا في العصور الوسطى، سعيد عبد الفتاح عاشور: 133

والتراث الروماني. والحق أنّ حنّا سالسبوري يعتبر أنضج ثمرة أنتجتها مدرسة شارتر حيث درس في شبابه وحيث مات وهو أسقف".[100]

وللإشارة فقد وجد مركزان للدراسات الكلاسيكية في القرن الثاني عشر هما: مدرسة شارتر أورليا، كان التفوق في الأهمية للمدرسة الأولى.

أمّا أشهر أدباء اللاتينية وأعظمهم في العصور الوسطى فهو الشاعر اللاتيني فرجيل (Virgil) حيث تداول نتاجه الأدبي الكثير من الدراسات، ويأتي من بعده في درجة الأهمية الشاعر أوفيد (Ovid) الذي نالت قصائده في العصر الوسيط جانبا كبيرا من الشعبية والشهرة والتوسع، وعلى وجه الخصوص قصيدته " فن الحب" و " دواء الحب" هذا بالنسبة للشعر والشعراء، أمّا بالنسبة للنثر فقد احتلّ الكاتب شيشرون الصدارة في العصور الوسطى ، حتى لقب بملك الفصاحة، واعتبر عمدة البلاغة بين الكتّاب الرومان.

والواقع أنّ تراث شيشرون الأدبي لا يمكن إحصاؤه في عجالة وقد نجد الجزء الأكبر من آثار ه رسائله خاصة في البلاغة والفلسفة، ثم يأتي بعد ذلك خطبه الشهيرة، ثم مقالاته في الأدب، كما ورد بأن مكتبة **دير كلوني** في ذلك القرن ضمّت كل هذه الألوان من آثار شيشرون " ذكر ثلاث مخطوطات من

---

[100] المرجع نفسه: 133

رسائل شيشرون الأدبية وأربع من خطبه وخمس من مقالاته في البلاغة وسبع من إنتاجه الفلسفي"[101]. ممّا جعله مرجعا لأدباء القرن الثاني عشر يتابعونه في أسلوبه وطريقته.

و كان الاهتمام بهؤلاء الكتّاب الرومان أهمّ مظاهر حركة إحياء الدراسات الكلاسيكية في القرن الثاني عشر،وظهر هذا الاهتمام واضحا من خلال حركة الاقتباس من الكتّاب والمفكرين، حتى إنّ المتتبع لهذا التراث يجد الكثير من الكتابات، التي ترجع إلى القرن الثاني عشر مليئة بالعبارات والأساليب والأفكار المأخوذة من كتّاب اللاتينية القدامى، وكذلك كثرة الشروح و التعليقات على الدراسات اللاتينية القديمة، ثم ظهور أشعار جديدة في القرن الثاني عشر تناولت أخبار طروادة والإسكندر الأكبر وغير ذلك من القصص العالمية[102].

3 ـ اللغة اللاتينية:

لقد حظي الأدب اللاتيني الكلاسيكي بعناية بالغة واهتمام كبير في القرن الثاني عشر ممّا يشير إلى أنّ اللغة اللاتينية كانت أداة تلك الدراسات الأدبية (نثرا وشعرا)، ونالت حظا وافرا من التطور والرقي في هذا القرن، وقد صمدت

---

[101] المرجع السابق: 132

[102] ينظر: المرجع نفسه: 136 ، 137

اللغة اللاتينية لقرون عديدة وظلّت اللغة العالمية السائدة في غرب أوروبا حتى أواخر القرن الثاني عشر، عندما أخذت تنافسها اللغات الوطنية الجديدة vernacular أو العامية [103] vulgaire ومنه أصبح للأدب مظهران أحدهما يظهر في الأدب اللاتيني، والآخر يظهر في اللغات الوطنية والعامية الناشئة.

وعليه فإنّ اللغات لم تشكل خطرا حقيقيا على اللغة اللاتينية في القرن الثاني عشر، بل كانت اللغة اللاتينية هي اللغة ال منتشرة بين رجال القلم والأعمال والقضاء والإدارة[104].

وإذا استخدمت الفرنسية أحيانا في الكلام في بعض المناطق الأوروبية، فإنّ هذا لم يحدث إلا على نطاق ضيق في القرن الثاني عشر، بحيث لم يتم استخدامها لغة أوربية شائعة إلاّ في القرن الثاني عشر.

ومن تمّ فاللاتينية لم تصبح لغة التواصل بين الدول والتفاعل فحسب، بل أضحت لغة جميع أنحاء غرب أوروبا في الأوقات المناسبة والحفلات والتعاملات الخاصّة والعامّة، كما أنّها سجّلت حضورا في الكنيسة وأصبحت لغة رجال الدّين في غرب أوروبا، كما كانت اللغة اللاتينية لغة العلم والتعليم في

---

[103] ينظر: حضارة ونظم أووربا في العصور الوسطى، سعيد عبد الفتاح عاشور: 137

[104] ينظر: حضارة أوروبا في العصور الوسطى، محمود سعيد عمران: 221

ذلك العصر؛ حيث تجد طلاب المدارس يتعلمون اللغة اللاتينية، ويتلقون بها جميع علومهم وقد نجدها كذلك في الكتب المدرسية والبرامج التعليمية ممّا سمح لها أن تحتل درجة عالية عند الطبقة المثقفة في أوروبا ، كما استخدمت في القضاء، فدوّنت بها القوانين الرومانية والكنسية[105].

وقد بقيت هذه اللغة تشغل حيزا واسعا في الاستخدام والمعاملات الإدارية والتعليمية والدينية، غير أنه "لا يمكن بقاء لغة من اللغات في قالب واحد وعلى صورة واحدة مع استخدامها في مثل ذلك المحيط الواسع من البلاد المتباعدة، وفي مثل تلك الأغراض المتنوعة المتباينة، لذلك نجد اللغة اللاتينية في العصور الوسطى تختلف اختلافا بيّنا تبعا لاختلاف الزمان والمكان والغرض الذي استخدمت فيه"[106]

4 ــ النثر:

لقد بلغت اللغة اللاتينية درجة عالية من الرقي والتطور في القرن الثاني عشر، حيث ظهر ذلك في الأدب بشقّيه النثر والشعر، أمّا علم البلاغة، فله

---

[105] يُنظر: حضارة ونظم أوروبا في العصور الوسطى، سعيد عبد الفتاح عاشور: 138

[106] The Renaissance. Haskins : 127

ارتباط وثيق بعلم النحو ، وهو علمٌ صار له في العصور الوسطى تاريخ يختلف عمّا كان عليه في العصور القديمة، لأنّ الأساليب الرومانية القديمة أمست لا تطابق مقتضيات الحياة في العصور الوسطى" [107]، وقد نجد البلاغة مرتبطة بالخطابة في العصور الوسطى، وكذلك بالرسائل ارتباطا شديدا حسب ما ورد" وإذا انتقلنا إلى ميدان البلاغة نجد أنّ إنشاء الرسائل احتلّ المكانة الأولى في القرن الثاني عشر، إذ ازدهر فن تدوين الرسائل في كل من بولونيا وفرنسا، وقد كتبت بأسلوب لا تيني رفيع، وبخاصة تلك التي ترجع إلى عهد الملك الفرنسي **فيليب أغسطس**[108]، ويزيد من قيمة تلك الرسائل أنّها تلقى الضوء على الأوضاع السائدة في ذلك العصر الذي دونت فيه"[109].

أمّا فيما يخص الخطابة وعلاقتها بالبلاغة فيتضح " أنّ الطابع الخطابي في البلاغة الرومانية بوجود لفظ << الخطابة Ortore >>، في عناوين معظم المقالات والموضوعات الأدبية الباقية من العصر الروماني"[110].

---

[107] حضارة ونظم أوروبا في العصور الوسطى، سعيد عبد الفتاح عاشور: 142

[108] فيليب أوغسطس: (Philippe Auguste) ولد سنة 1165 كانت فترة حكمه لفرنسا من 1180 إلى 1223 أي حكم لمدة 43 عاما خلفا لأبيه لويس السابع توفي 14 يوليو 1223.

[109] تاريخ العصور الأوروبية وحضارتها، جوزيف نسيم يوسف، دار النهضة العربية، بيروت، ط 2، 1987: 284

[110] حضارة ونظم أوروبا في العصور الوسطى، سعيد عبد الفتاح عاشور: 143

ومن الأسباب التي دعت إلى العناية بالخطابة، هي تلك النظم السياسية والقضائية عند الرومان، وكيف ارتبطت هذه النظم بمجالس الحكم ودور القضاء العامة، ولكن هذه الأهمية التي كانت تحظى بها الخطابة عند الرومان لم تلبث أن تلاشت باندثار نظمهم السياسية والقضائية فضلا عن ظهور المسيحية [111]، لم تعد الخطب البليغة منذ نهاية عصر الإمبراطورية الرومانية تؤدي دورها كما يلزم في القضاء، نظرا لعدم انسجامها مع روح المسيحية وتعاليمها، أي أصبح تدريس فن البلاغة على أيدي أساتذة متمرسين أمرا شكليا في العصور الوسطى. ولم يجد أساتذة القرن عشر أمامهم سوى كتب تشمل فن الخطابة (De Oratore) لشيشرون وقواعد الخطابة (Institiones Oratoriae) **لكونتليان**[112] حيث وضعوا ما فيها من خطب أمام تلاميذهم كنماذج لفن البلاغة لا كمراجع تشرح وتوضح أصول البلاغة وفنونها[113].

وقد اتجه الأدباء في عصر النهضة نحو إنشاء فن الرسائل التي أصبحت محور البلاغة وميدان البيان.

---

[111] ينظر: المرجع نفسه:143

[112]**كونتليان** : (Quintilian) : ماركوس فابيوس كوينتليان: مجادل رماني كانت مدارس الجدل في العصور الوسطى وعصر النهضة ترجع إلى أعماله بتواتر عالي وفي الترجمات الإنجليزية سمي كوينتليان، درس في رومة فن الخطابة ثم افتتح مدرسة لتلقين دروس البلاغة ، وللخطابة في رأيه خمسة أوجه: التفكير، والتنظيم والأسلوب، والذاكرة والإلقاء.

[113]ينظر: حضارة ونظم أوروبا في العصور الوسطى، سعيد عبد الفتاح عاشور: 143

علما أنّ كتابة الرسائل ليس فنا جديدا إذ يرجع الفضل في إبداعه وابتكاره إلى القرن الثاني عشر، غير أنّ الوثائق الحكومية والإدارية في العصور الوسطى أخذت الشكل العام للرسائل عن العصر الروماني.

وقد بدأ التجديد في كتابة الرسائل بإعداد مراجع مختصرة تناسب ظروف الحياة الجديدة وأوضاعها، تصحبها أمثلة ونماذج لتكون وسائل إيضاح للمتعلمين.

وللإشارة فإنّ هناك ضرباً آخر من ضروب النثر لا نستطيع أن نتخذه مقياسا للبلاغة في ذلك العصر، والمقصود بهذا النوع الخطب والمواعظ الدينية التي خلّف القرن الثاني عشر المئات منها، حيث تتميز هذه الخطب بالمحافظة على منهاجها وطريقتها واتباع السلف من العصور السابقة[114].

أمّا القصّة القصيرة فهي كذلك جزء من الآداب التي انتشرت في ذلك العصر، مع العلم أنّ هذه القصص أضاءت جوانب مختلفة من الحياة الاجتماعية في تلك الفترة من أوهام وخرافات وأوضاع اجتماعية سائدة، وكذا طرائف الحكام والأمراء.

5 - الشعر:

---

[114] ينظر: حضارة ونظم أوروبا، سعيد عبد الفتاح عاشور: 146

لقد شهد ميدان الشعر في القرن الثاني عشر نشاطا باهرا، وبلغ ازدهارا ملحوظا " فلم يكن بأقل شأناً من النثر، إذ بلغ درجة كبيرة من الوفرة وتنوع موضوعاته وقوة أسلوبه، وقد تأثر هذا الشعر بكل من الشعر الكلاسيكي من ناحية والطابع الديني الذي أوحت به المسيحية من ناحية أخرى..."[115].

وعليه فإنّ حضور الشعر بقوة خلال هذه الفترة جاء على وجه الخصوص بفرنسا وممّا يشهد على ذلك ظهور مجموعة من فطاحل الشعراء مثل: (ماربود، بوردي، هلدبير وغيرهم...)[116]

وممّا يلاحظ على أنّ الشعر اللاتيني الذي تمخضت عنه نهضة القرن الثاني عشر، أخذ مرتبة ما بين نهضتي القرن التاسع والقرن الخامس عشر سواء في شكله أو في زمانه.

كما جاءت القصائد تتناول الموضوعات الدينية مثل سير الرسل والقديسين والقصص المستوحاة من الكتاب المقدس.

ولم يقتصر الشعر اللاتيني في القرن الثاني عشر على محاكاة النماذج الكلاسيكية التقليدية فحسب. وإنّما نجح أيضا في استحداث وابتكار نماذج

---

[115] تاريخ العصور الوسطى الأوروبية وحضارتها، جوزيف نسيم يوسف: 284

[116] ينظر: حضارة ونظم أوروبا، سعيد عبد الفتاح عاشور: 146

وأوزان جديدة ،" يقول الكاتب جاستون باريس: أنّ الترانيم الدينية كانت في الواقع أخصب أنواع الشعر في العصور الوسطى؛ إذ إنّ طبيعة العصر كانت تشجع مثل هذا النوع من الشعر الذي كان يدور معظمه حول القضية الخالدة المتعلقة بالله والإنسان كما وردت في الكتب المقدسة، وكانت مثل هذه الترانيم ترتل في الكنائس في أيام الآحاد والأعياد والمواسم الدينية، وكان الناس يحفظونها عن ظهر قلب"[117].

هذا بالإضافة إلى مواضيع أخرى تناولها شعراء القرن الثاني عشر فنظموا في التاريخ وشعر الملاحم والدين والأساطير والأخلاق والرثاء والتهنئة والغزل ومجالس الشراب، هذا إلى جانب ما وضعوه من الشعر الغنائي والفكاهي[118]، فهناك تنوع في المواضيع وضخامة التراث الشعري اللاتيني الذي خلّفه القرن الثاني عشر بحيث لم يجمع ذلك الشعر كلّه في مجموعة واحدة.

ومن الواضح أنّ هذه المادة الهائلة من الفنون الشعرية في حاجة ماسّة إلى تبويب وجمع وترتيب. " فإذا نظرنا إلى الاصطلاحات التقليدية القديمة وهي تقسيم الشعر إلى شعر ملاحم (Epicoetry) وشعر غنائي (Lyric) وشعر

---

[117] تاريخ العصور الوسطى الأوروبية وحضارتها، جوزيف نسيم يوسف: 284

[118] ينظر: حضارة أوروبا في العصور الوسطى، محمود سعيد عمران: 223

تمثيلي (Dramatic)؛وحاولنا اتخاذ هذه الاصطلاحات أساسا للتقسيم لوجدنا أنّها لا تفي بالغرض، فضلا عن أنّ هناك ألوانا من الشعر يصعب وضعها تحت أحد الأقسام الرئيسية السابقة"[119].

إذن التقسيمات القديمة لا تلائم الكمّ الهائل من التراث الشعري اللاتيني نظرا لتنوعه واختلافاته من حيث الأغراض والتوجهات.

وعلى سبيل المثال نأخذ الشعر الغنائي والذي كان يعالج مواضيع تمجيد البطولة وسير الأبطال، ويعبّر عن جمال الطبيعة وعن مختلف العواطف الإنسانية بحيث" تعتبر الفترة الممتدة ما بين (1125 إلى 1230)بمثابة العصر الذهبي للشعر الغنائي الدنيوي وكان مركزه فرنسا..."[120].

وقد تميّز هذا النوع من الشعر بطابعه الدنيوي الذي يدعو إلى التمتع بالحياة ، وكان أمرا طبيعيا محاربة الكنيسة الكاثوليكية [121] لمثل هذا النوع من الشعر الدنيوي بعدم توافقه مع روح المسيحية، فحاربته بشدّة، وأنزلت أشدّ أنواع العقاب بأصحابه والداعين إليه، لكن هؤلاء الشعراء الدنيويين لم يسكتوا بل اتخذوا من مفاسد الكنيسة ورجال الدين مادة خصبة تضمنتها قصائدهم

---

[119] حضارة ونظم أوروبا في العصور الوسطى، سعيد عبد الفتاح عاشور: 148

[120] محاضرات في تاريخ أوروبا القرون الوسطى، طاعة سعد: 162

[121] **الكنيسة الكاثوليكية** هي أكبر الكنائس المسيحية رأسها البابا أسقف روما، ولقبها الأصلي هو الكنيسة المقدسة الكاثوليكية الرسولية، حيث مثلت هذه الكنيسة القوة الروحية في تاريخ الحضارة الغربية، وكان لها أثر كبير في تاريخ أوروبا السياسي والثقافي والأدبي والفني.

الشعرية الغنائية ولم ينجح البابا هو كذلك من تهكمهم وسخريتهم عليه، وكان مثل هذا الشعر الفكاهي الساخر يلقى الرواج والانتشار في جلّ أنحاء الغرب الأوروبي، ولعلّ أشهر وأبرز الشعراء في تلك المرحلة الشاعر هيوج أوف أوليانز الذي عاش في النصف الأول من القرن الثاني عشر وقد درس في باريس ثم قام بالتدريس فيها فيما بعد، وقد تعمق في الدراسات الكلاسيكية وكان على دراية بأوزان الشعر اللاتيني القديم. كل هذا ساعده على نبوغه في قرض الشعر الخفيف الذي تجلت فيه شخصيته ومواهبه[122].

وإذا رجعنا إلى الشعر الغنائي الدنيوي وهو الذي يعرف بالشعر الجولياردي(Peetry Goliardic)، ومن خصائصه أنّه يمتاز بالفكاهة خفّة الروح مع الابتكار والتنوع ، وقد انتشار على وجه الخصوص بين طلاب الجامعات الجديدة، وتدور معظم موضوعات هذا الشعر حول الخمر والنساء والغناء، أي كلّ ما يحوم ويتعلق بملذات الحياة والاستمتاع بها من حبّ وجمال ولهو ومن جهة أخرى التخلص من قيود الدين وسيطرة رجاله المتزمتين وقد

---

[122] تاريخ العصور الوسطى الأوروبية وحضارتها، جوزيف نسيم يوسف: 284

انتقد الشعراء الجوليارديون البابوية ورجال الكنائس والأديرة وجعلوهم موضعا لسخريتهم[123].

واستمر هذا النوع من الشعر تردده الألسن وتداوله بين الناس منذ القرن الثاني عشر إلى عصر حركة الإصلاح الديني البروتستنتي في القرن السادس عشر، وقد استخدمه أنصار هذه الحركة ودعاتها لإظهار وإثبات مفاسد الكنيسة الكاثوليكية وانحرافاتها، ويرى بعض المؤرخين في الشعر الجوليادري مظهرا من مظاهر التحرر الفكري الذي يرمي للتخلص من قيود الكنيسة الكاثوليكية الأمر الذي كان نذيرا بحركة الإصلاح الديني.

أمّا الشعر التمثيلي (Dramatic) فعلاقته كانت مقطوعة بينه وبين الشعر الكلاسيكي القديم؛ لأنّ التمثيل قام في العصور الوسطى على أسس دينية وقواعد مسيحية تلائم الأوضاع السائدة في تلك العصور؛ هذا وإن كان قد تأثر في بعض الفترات بالأحوال الثقافية والاجتماعية المعاصرة.

والواقع أنّ الأنواع الثلاثة الأساسية للتمثيليات التي عرفتها العصور الوسطى ارتبطت بالنهضات الثلاثة التي شهدتها تلك العصور[124]، وهي:

---

[123] ينظر: حضارة أوروبا في العصور الوسطى، محمود سعيد عمران: 223

[124] ينظر: حضارة ونظم أوروبا في العصور الوسطى، سعيد عبد الفتاح عاشور: 150

❖ **التمثيليات الغامضة أو تمثيليات الأسرار (Mystery):**

وقد ارتبطت هذه التمثيليات بالنهضة الكارولنجية، مع العلم أنّ هذا النوع من التمثيليات يستمدّ موضوعاته من القصص التاريخي الوارد في الإنجيل، أو من حياة القديسين والشهداء.

❖ **تمثيليات المعجزات (Miracle plays):**

ترتبط هذه التمثيليات بنهضة القرن الثاني عشر، وتقوم كذلك على أساس معارف ومعلومات تاريخية مستمدة من الإنجيل أو بعض التجارب التي مرّ بها القديسون التي توحي بقوتهم وإعجازهم.

❖ **التمثيليات الأخلاقية (Moratity):**

أمّا التمثيليات الأخلاقية فقد قامت ونشأت عن النوعين السابقين وارتبطت بنهضة القرن الرابع عشر في فرنسا وانجلترا[125].

---

[125] ينظر:حضارة ونظم أوروبا، سعيد عبد الفتاح عاشور: 150

ومن ثمّ فالنوع الذي اشتهر في القرن الثاني عشر من بين الأنواع الثلاثة هو تمثيليات المعجزات، والتي تناولت موضوع حياة القديسين وما في سيّرهم من دلائل الإعجاز حتى أصبح الاصطلاح الشائع والمتداول لهذا النوع هو التمثيليات الدينية (le drame liturgique)، لأنّ هناك قصصا كثيرة نسبت إلى القديسين قصد إظهار معجزاتهم وبركاتهم ممّا نتج عنه في الأخير موضوع شيّق للشعر التمثيلي[126].

كل هذا يعود إلى حياة هؤلاء القديسين كما سبق ذكره من قبل؛ بحيث أنّ حياتهم ترتبط بالكنائس المنتشرة في أوروبا، وكذلك الأحداث التي تصادفهم في زياراتهم إلى الأماكن المقدسة.

وبشأن الشعر فإنّ الأمر لم يتوقف على كتابته باللغة اللاتينية فحسب، ذلك أنّ آداب اللغات الوطنية أخذت في الظهور، وفي أواخر القرن الثاني عشر ظهر الشعر الغنائي البروفنسالي في جنوب فرنسا، وقد امتدّ تأثيره بعد ذلك إلى شمالها، وكذلك إلى الأدب الإيطالي والألماني.

---

[126]The Renaissance.haskins.p170_174

غير أنّه يمكن تسجيل ظهور الآداب الوطنية الجديدة نهايات القرن الثاني عشر ليبدأ عصر الانتقال من الأدب اللاتيني الخاص إلى الآداب الوطنية الناشئة[127].

6 - التدوين التاريخي:

هناك مظهر أخر من مظاهر النشاط الفكري في القرن الثاني عشر يبدو واضحا في الكتابات التاريخية التي ازدهرت في ذلك القرن أمّا هذا التطور والرقي يرجع إلى عدّة عوامل أهمها:" إحياء الأساليب القديمة في دراسة التاريخ وكتابته فضلا عن الأحداث الهامة التي امتاز بها القرن الثاني عشر، والتي ترتب عليها ازدياد الشغف بتدوين التاريخ؛ مثل الحروب الصليبية [128]، والنزاع بين البابوية والإمبراطورية، والعداء بين إنجلترا وفرنسا وازدهار المدن سياسيا واقتصاديا"[129].

---

[127] ينظر: حضارة أوروبا في العصور الوسطى، محمود سعيد عمران: 224

[128] **الحروب الصليبية:** إنّ الخلافات الدينية والسياسية التي قسّمت الغرب الأوروبي في آخر القرن الحادي عشر لم تمنع بقاء الوحدة المسيحية وتوكيدها أمام الإسلام، وأنّ الحملة التي أدّت في العام 1099 إلى أخذ القديس، على أيدي الفرسان الغربيين كانت تضم تحت إدارة البابوية، فرنسيين وألمانيين ونورمانديين وانجليز واسبانيين وبينما كان نزاع الكهنوت **(وظيفة الكاهن؛ وسرّ الكهنوت هو أحد أسرار الكنيسة السبعة المقدسة وبه يتولى الكاهن تلاوة القداس لتقديس جسد المسيح ودمه والحلّ من الخطايا)** والإمبراطورية يدور في ألمانيا وإيطاليا، والكابسيون في الغرب يتجابهون مع الملوك الآنغليين ــــ النورمانديين، اهتز البارونات والجماهير الشعبية ولبوا نداء الخبر الروماني واندفعوا نحو الشرق لحرب الإسلام في ملحمة كبرى سميت الحرب الصليبية الأولى **[الموسوعة التاريخية الحديثة، تاريخ العصر الوسيط في أوروبة، تعريب نور الدين حاطوم،دار الفكر، ط1، 1967 :818]**

[129] حضارة ونظم أوروبا، سعيد عبد الفتاح عاشور: 155

وقد يرجع الباحثون أصول التدوين التاريخي في العصور الوسطى إلى العصر المسيحي لا الوثني، وأنّ أوروبا الوسيطة قد اتخذت فلسفة علم التاريخ من القديس أوغسطين[130] وغيره من الكتاب المسيحيين[131].

وقد ازدهرت في نهضة القرن الثاني عشر الميلادي ثلاثة أنواع من الكتابات التاريخية وهي:

1 - الحوليات :

أمّا عن الحوليات والمدونات التاريخية في العصور الوسطى فقد ظهرت أنماط جديدة من التدوين التاريخي تلبية للاحتياجات الجديدة، وكانت الحوليات هي أكثر أشكال التدوين التاريخي في العصور الوسطى البدائية كما ظهرت الكتابة على طريقة الحوليات وكانت هذه الطريقة متبعة في مصر القديمة وبابل

---

[130] **القديس أوغسطين:** باللاتينية (Aurelius Augustinus Hipponenuis) ولد سنة 354 م في تاجاست (سوق أهراس بالجزائر حاليا) ينحذر من أصول فينيقية قرطاجية، يعتبر أعظم أباء الكنيسة ودكتور للكنيسة الكاثوليكية، كما يعتبره الكاثوليك ثاني أهمّ شخصية أثرت في الفكر المسيحي بعد القديس بطرس كان أسقف مدينة هيبون (عنابة بالجزائر) تأثر بكثير من التيارات الفكرية في عصره وانتهى به الإيمان بالمسيحية، وتحدث عن تجربته في كتابه الممتع (الاعترافات) كان يؤمن بالجبر، وبأنّ تاريخ البشر عبارة عن صراع بين مملكة الربّ ومملكة الدنيا، دافع بقوة عن روحانية المسيحية، ويعتبر من أهمّ وأقوى الشخصيات التي كان لها تأثير في تاريخ البشرية. توفي سنة 430 م

[131] حضارة أوروبا في العصور الوسطى، محمود سعيد عمران: 224

وقد ظهر هذا النمط من الكتابة التاريخية في أوائل العصر الكارولنجي [132]، وقد احتكر الرهبان كتابة الحوليات، وفرضت عليهم الحياة الكنائسية الانعزال عن الحياة الاجتماعية النشطة والأصل في هذا اللون من الكتابة التاريخية أن يعيش المؤرخ وسط جوّ الأحداث والوقائع لا أن يخرج عن ذلك وينعزل.

وعليه فقد جاءت كتابتهم قليلة القيمة ساذجة، كما تميزّت الحوليات في العصور الوسطى " بالاقتضاب الشديد بحيث لا تتعدى الحولية ذكر السنة وأهمّ ما حدث فيها وربما أضعف من تلك الحوليات أنّ كتابها كثيرا ما حصلوا على تدوين بعض الخوارق غير الطبيعية، فضلا عن الاهتمام البالغ بأحداث ــ هي في نظرهم ذات أهمية كبيرة ــ مثل نقل رفات قديس أو وفاة بعض كبار رجال الدين"[133].

كما ظهرت المدونات التاريخية (CHronieles) وتشمل كتب الوقائع والحوادث، والتي تعتبر الإنتاج البارز لعملية التدوين التاريخي في القرن الثاني عشر الميلادي عندما أخذت كتابة التاريخ تجنح نحو الطابع العالمي، وتتفادى صفتها المحلية التي لازمتها في العصور الوسطى السابقة، " والمدونات

---

[132] ينظر: العصور الوسطى الأوروبية (رؤية في المصادر والنصوص التاريخية وعمليات التعليق والترجمة)، محمد عبد الشافي المغربي، دار الوفاء، الإسكندرية، ط1، 2004: 30

[133] المرجع السابق: 30

التاريخية تلخيص لأحداث تاريخية لفترة من الفترات يقوم على أساس حولية وأكثر مع الاحتفاظ بالتنظيم والترتيب الزمني للأحداث على نحو ما هو متبع في الحوليات التي نقل عنها"[134].

2 – السّير Biographies:

تميزت كتابة السير في العصور الوسطى بوجه عام على أن تظهر سير القديسين في قالب مدح وثناء بحيث يظهرون في ثوب أصحاب المعجزات والكرامات، وظلّ هذا الأسلوب متبعا في القرن الثاني عشر فدونت سير بعض القديسين السابقين من جديد وفقا لمتطلبات المناسبات والظروف[135].

كما كتبت تراجم لقديسي القرن الثاني عشر أنفسهم وعلى رأسهم القديس الشهيد توماس بكت Thomas Beckt[136]، ولم تلبث أن احتلت سيرة القديس بكت مكانا بارزا في الدراسات الأدبية، سواء في الكتابات اللاتينية أو الفرنسية أو الأيسلندية، وجميع هذه الكتابات لم تخل من معجزات كثيرة نسبت إلى ذلك القديس ممّا جعل قبره قبلة الحجاج.

---

[134] نفسه: 30

[135] ينظر: حضارة ونظم أوروبا، سعيد عبد الفتاح عاشور: 156

[136] **توماس بكت Thomas beckt:** قتل سنة 1170 بتحريض من بلاط الملك هنري الثاني ملك إنجلترا فنظر إليه المعاصرون على انّه شهيد الكنيسة في صراعها مع السلطة العلمانية.**[حضارة ونظم أوروبا في العصور الوسطى، سعيد عبد الفتاح عاشور: 156]**

ومن تمّ فإنّ كتابة السير في القرن الثاني عشر لم تقتصر على القديسين، وإنّما شملت تراجم أبرز الشخصيات من رجال الدين، ويلاحظ على هذه التراجم أنّها اهتمت فقط بالمظاهر السطحية وأهملت التطرق للجوهر ولشخصية المترجم له[137].

وللإشارة أيضا نلاحظ أنّه في هذا العصر انتشر نوع آخر من كتابة السيّر عرف باسم " الكتالوجات" ولا يتناول هذا النوع سيرة فرد معين وإنّما يضم تراجم القديسين والرهبان والنبلاء في إقليم أو مكان محدد[138].

ومن تمّ فإنّ القرن الثاني عشر يشهد نشاطا ملحوظا في كتابة السير، وعلى سبيل المثال نجد الكاردينال بوزو كتب كتابا في سير كبار رجال الكنيسة السابقين والمعاصرين، معتمدا في ذلك على وثائق محفوظة في الأرشيف البابوي، ومن الصعب وضع خط فاصل بين تراجم أمراء الإقطاع ورجال في ذلك العصر لأنّ كبار رجال الدين تمتعوا بصفات الأمراء الإقطاعيين التي دونها رجال الدين، " وخير مثال لتراجم الأمراء الإقطاعيين التي دونها رجال

---

[137]ينظر: حضارة ونظم أوروبا، سعيد عبد الفتاح عاشور: 156

[138]ينظر: نفس المرجع السابق: 157

الدين ما كتبه القديس لا مبرت Lambert عن أمراء مقاطعة جوين Guines قرب نهاية القرن الثاني عشر"[139].

أمّا النوع الذي يكتب فيه الفرد عن نفسه ويترجم لها فلا نجد منه سوى القليل النادر في هذا العصر، وينحصر معظم هذا القليل في كتبه الديريون[140] عن حياتهم داخل أديرتهم.

3 – الوقائع والحوادث: CHronicles

هذا النوع من الكتابات التاريخية يعتبر الإنتاج المميز لفن التدوين التاريخي خلال القرن الثاني عشر ميلادي، وذلك عندما أخذت كتابة التاريخ تتجه نحو الطابع العالمي، وتخلع عن نفسها صفتها المحلية التي لازمتها في العصور الوسطى السابقة.

ولعل خير دليل على ذلك هي الكتب التي عالجت الأحداث التاريخية العالمية في هذا العصر ومن أهمها كتاب روبرت Robert Torgini الذي ظلّ يكتب تاريخه ولم يتوقف عند الأحداث المحلية الخاصة بالدير والكنائس والمقرّبين إليه، بل تخطى ذلك إلى العالم الخارجي وإلى ما حدث في البلاد البعيدة[141].

---

[139]المرجع انفسه: 157

[140]**الديريون:** هم الرهبان والنسّاك الذين ينتمون إلى الدير ويعتنون به.

[141]ينظر: المرجع السابق: 158

ومن الواضح أنّ روبرت كان يلتقط الأخبار التاريخية من الزوّار الذين يترددون على الدير في تلك البقعة النائية من جنوب غرب إنجلترا، حتى جاء كتابه في نهاية الأمر معهم الكثير من الأخبار عن اسبانيا وصقلية وبلاد الشام[142].

عموما لم تقف الكتابات التاريخية في القرن الثاني عشر عند حد الموضوعات السابقة بل تناولت الأحداث ذات الأهمية الخاصة في نظر المعاصرين مثل حملات فردريك الأوّل على إيطاليا، وانتشار المسيحية شمالا في سكندناوة[143] وشرقا بين العناصر السلافية، وجنوبا على حساب المسلمين في اسبانيا وصقلية.

6 –القانون والتشريع:

يعدّ مجال الدراسات القانونية من أعظم المجالات التي عبّرت عن النشاط الفكري في القرن الثاني عشر، وذلك لما شهده هذا القرن من نشاط واضح في إحياء الدراسات القانونية الرومانية، ممّا يوحي بنبوغ الرومان في هذا

---

[142]ينظر: المرجع السابق: 158

[143]**سكندناوة**: أو اسكندنافيا هي شبه جزيرة تقع في شمال قارة أوروبا.

المضمار، حتى أنّ الكاتب فرجيل قال: " الرومان كانوا حكّاماً ومشرعين أكثر منهم فلاسفة وأدباء"[144].

وهذا ما يؤكد قولا آخر مفاده " أنّ روما غزت العالم ثلاث مرّات: الأولى بجيوشها والثانية بكنيستها، والثالثة بقانونها" [145]، ومن هنا نلاحظ أنّ غزو الرومان الأخير كان في المجال الفكري، وحدث بعد زوال الإمبراطورية الرومانية من الوجود.

والواقع أنّ الدراسات القانونية الرومانية لم تتوقف في غرب أوروبا طوال المرحلة السابقة من العصور الوسطى التي يطلق عليها اسم العصور المظلمة فقد وجدت مدرسة للقانون الروماني في روما كما وجدت مدارس أخرى للقانون في مدينتي بافيا، ورافنا، " وظهر هنا دور الأمراء مثل الأميرة ماتيلدا أميرة ستكانيا التي أرادت إقامة مدرسة للقانون لتكون سندا لها ولحليفتها البابوية في صراعها ضد الإمبراطور وحليفته مدرسة رافنا وفي بولونيا عمل أرناريوس كمدرس ومؤلف في القانون"[146].

---

[144]Haskins , The Renaissance. P 193

[145]المرجع السابق: 193

[146]محاضرات في تاريخ أوروبا القرون الوسطى، طاعة سعد: 162

ومن تمّ فإنّ الأمراء لهم دورهم في إنشاء المدارس المتخصصة في هذا المجال، وذلك قصد جعلها سندا ودعما لهم في صراعاتهم ضد الإمبراطور وحلفائه. إلّا أنّ نشاط هذه المدارس لم يكن كافيا للحدّ من انتشار القوانين العرفية التي جاءت أصولها من تقاليد وعادات الشعوب الجرمانية، والتي انتشرت مع مجيء الجرمان وكذلك مع قيام النظام الإقطاعي[147].

نستنتج أنّ هذه العادات والتقاليد أصبحت هي المتحكمة في المجتمع الغربي، وإن ظلّت بعض آثار القانون الروماني باقية ما هو الحال لدى " اللومبارديين في شمال إيطاليا في القرن الحادي عشر، كما أنّ بعض الدول الجرمانية التي قامت في غرب أوروبا مثل القوط الشرقيين والغربيين والبرجنديين، قد اقتبست تشريعاتها من مجموعة القانون الروماني التي جمعها الإمبراطور ثيودوسيوس الثاني سنة 438 م ووجد أثر أخر هام للقانون الروماني في الغرب الأوروبي، ممثلا في مجموعات الإمبراطور جستنيان القانونية التي أصدرها في القرن السادس الميلادي"[148].

نلاحظ أنّ قانون الرومان هو خير ما يعبّر عن عقليتهم وتفكيرهم، ولذا فإنّ إحياء القانون الروماني يمثل ركنا أساسيا في أية نهضة رومانية.

---

[147] ينظر: حضارة أوروبا في العصور الوسطى، محمود سعيد عمران: 225
[148] المرجع نفسه: 226

إنّ القرن الثاني عشر شهد نشاطا ملحوظا في إحياء الدراسات القانونية حتى أصبح أهّم عصر تاريخ القانون منذ العصر اليوناني القديم، بالإضافة إلى أنّ الأمر الذي أدى إلى تشجيع الدراسات القانونية في هذا العصر هو اشتداد الصراع بين البابوية والإمبراطورية في ذلك القرن، ممّا نتج عنه اهتمام بالغ وميول اتجاه الدراسات القانونية لحاجة كلّ طرف من الطرفين المتصارعين إلى تدعيم مركزه على أسس قانونية واضحة: "فعلى الرّغم من أنّ القانون الكنسي بدأ بداية ضعيفة فاترة إلا أنّه سرعان ما أخذ ينمو ويتطور نتيجة لازدياد نفوذ الكنيسة حتى جاء وقت في القرن الثاني عشر استطاع أن يقف فيه جنبا إلى جنب مع القانون المدني الروماني، بل تخطّاه في الأهمية في بعض الحالات"[149].

7 – حركة الترجمة عن العربية واليونانية:

تعتبر الترجمة جسرا للتوصل بين الحضارات، ولا يمكن أن يدرس علم من العلوم أو الاطلاع على ثقافة من الثقافات إلا بالترجمة، إذ تعدّ من أكثر المظاهر الفكرية نشاطا وأهمية، الدكتور محمد عناني: " الترجمة فن تطبيقي،

---

[149] حضارة ونظم أوروبا في العصور الوسطى، سعيد عبد الفتاح عاشور: 169

وهي حرفة لا تأتي إلا بالدربة والمران والممارسة استنادا إلى موهبة، ويقرر كثير من اللذين مارسوا الترجمة طويلا بأنّه لا توجد طرق مختصرة للإجادة في الترجمة فلا كتب المتخصصين ولا الكتب العامة بمغنية عن الممارسة والخبرة"[150].

ومن تمّ فإنّ الترجمة هي فن وممارسة تعتمد على الخبرة وهي نقل العلم والمعرفة من لغة إلى لغة أخرى، وعلى المترجم أن يكون متمتعا بفكر واسع وثقافة عالية، حتى يستطيع أن يقل أفكار غيره، لأنّه قد يواجه في عمله صعوبات وغموضاً في صياغة الأفكار وتطويع اللغة.

ولعلّ أنّ الترجمة أدّت دوراً فعّالاً في الفترة التي نحن بصدد دراستها ألا وهي القرن الثاني عشر بحيث اعتمدت " الجانب العلمي والفلسفي في عصر النهضة (القرن الثاني عشر) على التراثين اليوناني والعربي الإسلامي، ولم تستطع أوروبا الاستفادة من ذلك على مستوى واسع في القرن 12 م إلّا عن طريق حركة ترجمة واسعة"[151]

والواقع أنّ أوروبا لم تستطع أن تستفيد من هذين التراثين (اليوناني والعربي الإسلامي) استفادة كاملة –كما ورد في القول – إلا عن طريق حركة

---

[150] العصور الوسطى الأوروبية (رؤية في المصادر والنصوص التاريخية وعمليات التعليق والترجمة)، محمد عبد الشافي المغربي: 55
[151] محاضرات في تاريخ أوروبا العصور الوسطى، طاعة سعد: 162

واسعة في الترجمة عن اليونانية من جهة وعن العربية من جهة أخرى،" وأخذت العلوم العربية تنتقل إلى غرب أوروبا عن طريق معابر عدّة ارتادها الأوروبيون قصد التعرّف على كنوز العرب من العلم والمعرفة، واتجه بعض طلاب العلم إلى الشمال الإفريقي أو المغرب الإسلامي مثل قسطنطين الإفريقي الذي له أهميته في تطوير علم الطب في أوروبا بسبب ما ترجمه من المؤلفات اليونانية عن العربية، أمّا ليوناردو البيزي فتعلّم في الغرب الرياضيات"[152].

إذن حركة الترجمة هاته كان لها الفضل في جعل البلاد العربية تحتل مكانة خاصة في المجال الحضاري في تلك المرحلة من العالم الوسيط، " وكانت إسبانيا المركز الرئيسي للترجمة من العربية إلى اللاتينية كما برز نشاط آخر للترجمة في إيطاليا من اليونانية إلى اللاتينية ومن أهمّ المترجمين هنري أريستيبيوس الذي ترجم كتابات أفلاطون وأرسطو"[153]

والملاحظ أنّ غرب أوروبا في العصور الوسطى ظلّ حتى أواخر القرن الحادي عشر يهمل العلوم والدراسات اليونانية إهمالا يكاد يكون تامّا، وفي تلك الأثناء استمرّ التراث اليوناني حيّا في الإمبراطورية البيزنطية، لاسيما القسطنطينية، كما بقيت اللغة اليونانية لغة تقليدية مستخدمة في الكنيسة والقانون والإدارة

---

[152] حضارة أوروبا في العصور الوسطى، محمود سعيد عمران: 230

[153] محاضرات في تاريخ أوروبا العصور الوسطى، طاعة سعد: 163

والدراسات العلمية والمعاملات الرسمية، وعليه فإنّ مفكري الإمبراطورية الشرقية لم يضيفوا للتراث القديم سوى القليل، ولكن علوم اليونان وكتاباتهم ظلّت تدون وتدرس باستمرار[154].

وعموما إذا كانت حركة الترجمة من العربية إلى اللاتينية اتخذت لها أكثر من مركز في القرن الثاني عشر، فإنّ حركة الترجمة عن اليونانية لم يكن لها سوى مركز رئيسي واحد وهو صقلية وإيطاليا، حيث التقت الثقافات الثلاث اليونانية واللاتينية والعربية، وكانت مملكة النورمان في صقلية وجنوب إيطاليا هي الموقع الطبيعي لالتقاء تلك الثقافات، وخلاصة القول أنّ حركة الترجمة ترتّب عليها إنعاش واسع للحياة الفكرية في غرب أوروبا في الفترة الأخيرة من العصور الوسطى.

8 – العلـــــــوم:

في ضوء حركة الترجمة، يمكن تتبع أثر النهضة العلمية العظيمة الي يشهدها القرن الثاني عشر في مجال العلوم، وذلك من خلال بعض الأبحاث

---

[154] ينظر: حضارة ونظم أوروبا في العصور الوسطى، سعيد عبد الفتاح عاشور: 177

والدراسات مثل : مختصرات إسيدور Isidore وبدي bede وكذلك بعض الأبحاث المتفرقة لكُتّاب رومان ظهرت مع نهاية القرن الحادي عشر[155].

وبعد نقل العلوم إلى اللغة اللاتينية، أقبل الأوروبيون على دراسة الرياضيات والفلك والكيمياء وحصلوا على كتابات إقليدس [156] وبطليموس السكندري[157] وما كتبه العرب أنفسهم، وفي الطبّ حصلوا على كتابات جالينوس[158]، وهيبوقراط[159]، وابن سينا[160].

ومع دراسة الأوروبيين العلوم المترجمة والتعمق فيها، بدأت تظهر لديهم الطريقة التجريبية في مناهج البحث، كما استطاعوا أن يتعرفوا على تراث اليونان العلمي وعلوم العرب الجديدة، ومن تمّ كذلك بدأ يظهر نوع من التخصص العلمي، ونستعرض فيها بعض العلوم وما حققته من تقدم في القرن الثاني عشر:

---

[155] ينظر: حضارة ونظم أوروبا في العصور الوسطى، سعيد عبد الفتاح عاشور: 184

[156] **إقليدس:** عالم رياضيات يوناني ولد سنة 300 ق.م ، يلقب بأبي الهندسة مشواره العلمي كان في الإسكندرية في أيام حكم بطليموس الأول (323، 383 ق.م)، اشتهر إقليدس بكتابه " العناصر".

[157] **بطليموس السكندري**: هو رياضي وجغرافي وعالم فلك يوناني، ولد نحو87 م، توفي قرب الإسكندرية نحو 150م، وهو من أهل القرن الثاني ميلادي، صاحب كتاب المجسطي، يقوم نظامه الفلكي على أساس أنّ الأرض ثابتة، وأنّ الأفلاك تدور حولها.

[158] **جالينوس**: هو طبيب وفيلسوف يوناني، ولد سنة 129 م، يعتبر أحد أعظم الأطباء في العصور القديمة، ساهم في تطوير العديد من الفروع العلمية كعلم التشريح، وعلم وظائف الأعضاء (فيزيولوجيا)، فضلا عن الفلسفة والمنطق، توفي سنة 200 م.

[159] **هيبو قراط:** يلقب بـــ أبي الطب وصاحب القسم المشهور باسمه الذي يجعل لممارسة الطب أخلاقيات مهنية ينبغي العمل بمقتضاتها ومراعاتها وينسب له نحو ستين رسالة تشكل ما يسمى بمجموعة Hippocrates وكان يتبع فيها منهجا تجريبيا وتفسيره للمرض فسيولوجيا. توفي سنة 377 ق.م

[160] **ابن سينا:** هو أبو علي الحسن بن عبد الله بن الحسين بن علي بن سينا، عالم وطبيب مسلم من بخارى، ولد سنة 980 م، عرف باسم الشيخ الرئيس، وسمّاه الغربيون بأمير الأطباء، وقد ألّف 200 كتابا في مواضيع مختلفة العديد منها يركز على الفلسفة والطب، وقد اتبع نهج أبقراط وجالينوس وأشهر أعماله(القانون في الطب). توفي سنة 1037 م.

أ- العلوم الرياضية:

تميّزت الرياضيات بتقدم واضح خاصة بعد ترجمة كتب إقليدس في الهندسة، بالإضافة إلى نقل إديلارد جداول حساب المثلثات للخوارزمي [161] إلى اللاتينية، وكذلك نقل روبرت الشستري كتاب الجبر للخوارزمي إلى اللاتينية [162]. كما " نقل أحد يهود إسبانيا في القرن الثاني عشر وهو إبراهيم بن عزر(1097 – 1167م) بعض مؤلفات العرب في الفلك والرّياضيات إلى اللاتينية"[163].

كل هذا دليل على وجود نشاط كبير بالنسبة للعلوم الرياضية في هذه الفترة، ممّا أحدث ثورة في الحساب وساعد على التقدم الرّياضي الذي شهدته أوروبا أنذاك.

ب – علم الفلك:

فالمخطوطات التي وجدت في أوائل القرن الثاني عشر بغرب أوروبا لم تتعد بعض المعلومات الضئيلة عن هذا العلم، وكذا بعض الإشارات عن الإسطرلاب، وهذا لا يوحي بمعرفة الأوروبيين لهذا العلم. " لكن حدث سنة

---

[161] **الخوارزمي:** أبو عبد الله محمد بن موسى الخوارزمي، عالم رياضيات وفلك مسلم، ولد سنة 781 م، يعتبر من أوائل العلماء المسلمين، من أهم كتبه الجبر والمقابلة، ولديه كتاب الجمع والتفريق في الحساب الهندي، توفي 847 م.

[162] ينظر: حضارة أوروبا في العصور الوسطى، محمود سعيد عمران: 233

[163] حضارة ونظم أوروبا في العصور الوسطى، سعيد عبد الفتّاح عاشور: 186

1120 م أن بدأ أحد الإنجليز وهو " والشر، Walcher" في حساب الدقائق والثواني، بعد أن تعلّم ذلك من بطرس ألفونس الإسباني اليهودي"[164].

ومن هنا كانت الانطلاقة الحقيقية نحو الإبداع واكتشاف خبايا هذا العلم، وفي سنة 1126 م ترجم أديلارد كتابات الخوارزمي في الفلك. لكن الفضل في هذا الميدان يعود للعرب، حيث صحّحوا معلومات بطليموس وغيره من علماء العصر القديم، وأضافوا إليها الشيء الكثير من التعديلات والتصحيحات، وقد بلغت هذه الكنوز التي خلّفها العرب وغيرهم من علم الفلك أوروبا واهتموا بها اهتماما كبيرا ظهر ذلك في الجامعات الأوروبية فيما بعد.

ج- علم الجغرافيا:

يبدو أنّ علم الجغرافيا مقارنة بالعلوم الأخرى لم يحرز تقدما كبيرا في غرب أوروبا، وخاصة في هذه الفترة نظرا لعدم توغل الأوروبيين في المنطقة، وكذلك لم تعرف أوروبا كتابات الجغرافيين العرب أمثال" المسعودي وابن حوقل والأصطخري في وقت مبكر، ومع ذلك نجد بداية محدودة لتعرف الأوروبيين على دراسات العرب الجغرافية وعلى رأسهم الإدريسي الذي كتب مؤلفه " نزهة

---

[164] المرجع السابق: 186

المشتاق في اختراق الآفاق " بناء على طلب الملك روجر الثاني ملك صقلية ".[165]

وقد شهد القرن الثاني تقدما في علوم الطبيعة والكيمياء والطب، كما شهد ترجمة الكثير من المؤلفات العربية الشهيرة في الطب، ومع كل هذا التقدم والرقي في مجال العلوم والدراسات نتج عنه حبّ المعرفة وبداية ظهور روح البحث والتجربة.

9- الفلسفة واللاهوت:

لقد ارتبطت الفلسفة في العصور الوسطى بالعلوم البحتة حتى اعتبرت جزءا منها أو فرعا تابعا لها، وذلك وفقا لما كان عليه الحال عند اليونانيين القدماء.

ولكن القرن الثاني عشر بالذات يمثل مرحلة انتقال أساسية في تاريخ الفلسفة واستقلالها ونموها[166].

ومن تمّ فإنّ هذه النقلة المعرفية في مجال الفلسفة وتحررها يعود إلى إحياء الفلسفة اليونانية عند أرسطو وأفلاطون، ونفض الغبار عن المنطق

---

[165] حضارة أوروبا في العصور الوسطى، محمود سعيد عمران: 234

[166] ينظر: حضارة ونظم أوروبا، سعيد عبد الفتاح عاشور: 191

والأدب، حيث تمّ في هذا العصر وضع اللبنة الأساسية لإعادة إحياء الفلسفة وبعثها في شكل قالب مترابط الأجزاء.

10 - اللاهوت:

اللاهوت هو علم دراسة الإلهيات دراسة عقلية، وقد اعتمد علماء اللاهوت المسيحيون على التحليل العقلاني لفهم المسيحية بشكل واضح هذا من جهة، أمّا من ناحية أخرى يتضح أنّ النشاط الفلسفي في القرن الثاني عشر ظلّ مرتبطا إلى حدّ كبير بالنشاط الديني وعلم اللاهوت، " فكثير ما خاض فلاسفة أمثال جيوم الكونشي Guillaume de conches (ت 1145م)، وأبيلار في مسائل كنسية ولاهوتية بحتة"[167].

ومن تمّ فإنّ هؤلاء الفلاسفة رأوا أنّ علم اللاهوت له صلة وطيدة بالفلسفة وكلّ ما له علاقة بالعقل والمنطق، وفي الوقت نفسه " اعتقد اللاهتييون؛ – كما قال بطرس مياني (+ 1076م) – أنّ الفلسفة خادمة اللاهوت؛ فاشتغلوا وعلى رأسهم روسلينوس والقديس أنسلم بالجدل والفلسفة وتعرضوا لكثير من المسائل الفلسفية البحتة"[168].

[167]المرجع السابق: 197
[168]المرجع السابق: 197

وسرعان ما تأثر اللاهوت بالفكر الفلسفي والتحليل المنطقي، وأصبحت البابوية تهتم باللاهوت اهتماما كبيرا، ممّا ترتّب عنه عملية واسعة في دراسته والبحث عن خباياه، إلى "أن أصبح اللاهوت علما قائما بذاته يدرس في الجامعات الأوروبية الناشئة، وبخاصة جامعة باريس"[169].

10 – نشأة الجامعات:

وفي ختام كلامنا عن المظاهر الفكرية في القرن الثاني عشر، نشير إلى نشأة الجامعة التي أنتجتها العصور الوسطى المتأخرة في دوائر العلم والتعليم." إذ ليس هناك فيما سبق من القرون الماضية أيّام الرومان واليونان القدماء ما يدل على وجود مثل هذه الفكرة الجامعية التي عرفناها لأوّل مرة في العصور الوسطى، وأنّ التاريخ القديم بكلّ ما وصل إليه من الرقي في شتى نواحي الحضارة الفكرية لم يكن فيه جامعة واحدة بالمعنى الذي نفهمه"[170].

إذاً الجامعات بالمعنى المعروف والمتداول هي من نتاج القرون الوسطى وبالضبط في نهاية هذه القرون، وبالتالي فإنها فترة ابتكار وتجديد في النظم التعليمية.

---

[169] المرجع نفسه: 197
[170] تاريخ العصور الوسطى الأوروبية وحضارتها، جوزيف نسيم يوسف: 315

وللإشارة فإنّ القرن الثاني عشر " بدأ بالمدارس الديرية والكتدرائية واختتم بمولد أولى الجامعات التي عرفتها أوروبا"[171].

ومن تمّ إنّ هذه الجامعات لم تنشأ من العدم ولم تظهر طفرة واحدة في محيط العلم، " فهي نتيجة طبيعية لعدّة عوامل وظروف توالت على مرور الأجيال إلى أن انتهت بغرس النواة الجامعية التي أخذت تنمو نمواً تدريجيا بطيئا مستمرا إلى أن شبت وترعرعت أخيرا "[172].

وقد نستخلص من هذا أنّ الجامعات في هذا القرن هي وليدة نهضة علمية، وهي في الوقت نفسه من أهمّ مظاهر تلك النهضة " فطالما اقتصرت الحياة العلمية في أوروبا على معالجة الفنون السبعة الحرّة لم تكن هناك ثمّة حاجة إلى جامعات"[173].

أي أنّ طلبة العلم كانوا يتلقون مبادئ الفنون السبعة وهي النحو والبلاغة والمنطق والحساب والفلك والهندسة والموسيقى، ولكن الفترة الأخيرة من العصور الوسطى ومع تطور الحياة العلمية تطورا كبيرا سمحت لهم بالاطلاع

---

[171] حضارة ونظم أوروبا في العصور الوسطى، سعيد عبد الفتاح عاشور: 207
[172] تاريخ العصور الوسطى الأوروبية وحضارتها، جوزيف نسيم يوسف: 316
[173] حضارة ونظم أوروبا في العصور الوسطى، سعيد عبد الفتاح عاشور: 208

على علوم ومعارف جديدة تدفقت على أوروبا، وبالتالي أصبح لا بد من حدوث تطور في نظم التعليم العالي وقيّام كليات تحتضن تلك المعارف الجديدة.

وقبل أن ننهي الحديث عن المظاهر الفكرية في أوروبا لا بد للإشارة إلى نوع آخر من الرقي والتطور، ألا وهو الفن القوطي الذي بلغ أوجّه في هذا القرن نتيجة لعدّة عوامل أدّت إلى مولده بحيث كان امتدادا للطراز الرومانسكي[174] وظهر خاصّة في فن العمارة،

بالإضافة إلى الفكر السياسي وهو عبارة عن تفكير يعالج شؤون السياسة وفلسفة الحكم.

وخلاصة القول فإنّ القرن الثاني عشر الميلادي في أوروبا خلّف تراثا فكريا هائلا، لا يستهان به، وقد شمل جميع المجالات العلمية والفكرية من لغة وآداب وفلسفة وعلوم مختلفة، وتآليف متنوعة في شتى الميادين، وتشييد أولى الجامعات في أوروبا آنذاك، ومن خلال هذا الرقي والتطور الفكري استطاعت أوروبا الاطلاع على تراث الأمم المجاورة لها، والتواصل معها أخذا وعطاء، ومن بين الحضارات التي تواصلت معها أوروبا في العصور الوسطى هي

---

[174] الفن الرومانسكي: هو فن معماري ظلّ سائدا في أوروبا من القرن التاسع حتى القرن الثاني عشر الميلاديين، وقد تطور كثيرا، وكان يستخدم في الكنائس والأديرة، وقد تحول الفن الرومانسكي إلى الفن القوطي في القرن الثاني عشر.

الحضارة العربية الإسلامية التي بلغت أوج عطائها، وشكلّت العصر الذهبي في إحياء العلوم والمعارف وتجديدها وابتكار ما عجز عنه غيرهم.



الفصل الثاني

" واقع المغرب الإسلامي "

1. **محمد بن تومرت** (المولد والنسب، طلب العلم،أشهر شيوخه، وفاته)
2. **عبد المومن بن علي** (المولد والنسب، نشأته وطلبه العلم،لقاؤه ابن تومرت)
3. **تأسيس الدولة الموحدية**

أ ـ المنهج السياسي

ب ـ الظروف الاجتماعية والاقتصادية

ج ـ الأسس الفكرية والعقدية

(الاتجاهات الفكرية في الدعوة الموحدية)

يطلق مصطلح المغرب على كلّ البلاد الإسلامية الممتدة من حدود مصر الغربية إلى غاية المحيط الأطلسي [175]، وبلاد المغرب تعتبر كلّها من ناحية الطبيعة الجغرافية والمناخ إقليما واحدا له خصائص ومميزات واحدة تجعل من العسير تقسيمه إلى وحدات سياسية مختلف بعضها عن بعض.

إنّ بلاد المغرب في مجموعها بلاد غنية إلى حدّ ما، فيها موارد وافرة للثروة والحياة، ولكنّها تحتاج إلى أمن واستقرار طويلين لتؤتي ثمارها، لأنّ أهل المغرب أنفسهم أهل عمل ودأب وذكاء، ولهذا فمن الممكن استغلالها استغلالا جيدا، ومواردها تمكن من قيام دول كبرى وحضارات زاهرة فيها، وسنلاحظ أنّه في العصور التي هدأت فيها الأحوال قامت في المغرب دول عظيمة وقوية لها تاريخ مجيد، ودور كبير في تاريخ العالم الإسلامي جملة"[176].

ونخص بالذكر فترة حكم الموحدين في بلاد المغرب حيث أصبحت هذه الأخيرة مركزا للحضارة الزاهرة، وانتشار الأمن والهدوء، وهذا ما ساعد على الرقي في جميع المجالات وبخاصة منها المجال العلمي والفكري.

1ـــ محمّد ابن تومرت:

أ ــ النسب والمولد:

---

[175] ينظر: معالم تاريخ المغرب والأندلس، حسين مؤنس، دار الرشاد، القاهرة، ط2، 1997: 26

[176] نفس المرجع: 26

اختلف المؤرخون في تحديد نسب ابن تومرت فبعضهم قال: " إنّه عربي، وينتهي نسبه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم عن طريق ابنته فاطمة من زوجها علي، والبعض الأخر يجعل نسبه بربريا صرفا ، والبعض الأخر يجعله نسبا مختلطا بين البربر والعرب، هذا وإن كان ابن تومرت والموحدون من بعده يصرون على أنّ المهدي عربي النسب، قرشي الأصل من صلب الرسول صلى الله عليه وسلم"[177].

ثمّ إنّ المتتبع لتاريخ ابن تومرت يدرك أنّه لم يظهر إدعاءه النسب القرشي دفعة واحدة بل إنّه تدرج في هذا الأمر، حتى يكسب ودّ الناس وينال قبولهم، فبعد أن اطمأنّ لقبول دعوته، وإلى تمكنّه من أتباعه، أخذ يشوقهم إلى المهدي ونسبه، ثم لما قبلوا هذا الأمر، ادعى ذلك الأمر لنفسه.

ويذهب ابن خلدون إلى أنّ نسبه يرجع إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، حيث قال: "وأمّا إنكارهم نسبه في أهل البيت فلا تعضده حجة لهم، مع أنّه إن ثبت أنّه ادعاه وانتسب إليه فلا دليل يقوم على بطلانه، لأنّ النّاس مصدقون في أنسابهم"[178].

---

[177] دولة الموحدين، علي محمد الصلابي، مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع، القاهرة، ج2، ط1، 2007: 15.

[178] المقدمة، ابن خلدون، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، طبعة جديدة ومنقحة، 2007: 26

غير أن الذهبي لم يوافق ابن خلدون، وقال: "إ نّ محمد بن تومرت لا يتورع في الكذب والدجل من أجل الوصول إلى أهدافه"[179].

أما من المعاصرين فنجد عبد المجيد النجار يوافقهما في صحة نسب ابن تومرت إلى بيت النبي صلى الله عليه وسلم، وادع اء صحة هذا النسب تبقى قائمة من حيث الإمكان التاريخي والجغرافي والعقلي[180].

ومن ثمّ فإنّ محمد بن تومرت ادعى النسب القرشي الهاشمي وسيلة لكسب الأنصار لدعوته الناشئة.

ومن المتفق عليه أن ابن تومرت ولد بمنطقة سوس جنوب المغرب الأقصى بقبيلة هرغة، من قوم يعرفون بـــ "إيسرغينن" [181] التي هي بطن من بطون قبيلة مصمودة الكبرى [182]، ويختلف هؤلاء المؤرخون في اسم المكان الذي ولد فيه، حيث يذكر المراكشي "أنه ولد في ضيعة تعرف بـــ "يجلي أن وارغن""[183].

---

179 ينظر: سير أعلام النبلاء، الذهبي: 539/19

180 ينظر: دولة الموحدين، علي محمد الصلابي: 16

181 إيسرغينن: معناه الشرفاء بلدان المصامدة.

182 الإمامة عند بن تومرت، دراسة مقارنة مع الإمامية الاثني عشرية، علي الإدريسي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، د.ط. د.س:103.

183 المعجب في تلخيص أخبار المغرب، عبد الواحد المراكشي، تح: محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي، القاهرة، 1949: 265

وهناك من يضيف إلى ذلك بقوله: "الفقيه أبو عبد الله محمد بن تومرت من هرغة إحدى بطون مصمودة بالمغرب الأقصى، في السفح الجنوبي بجبال أطلس، وفي السهول وتعرف بجبال درن [184]،ولمصمودة بطون أهمها هرغة وهندانة و تينملل ودكالة وهيلانة ويشكلون غالبية في المغرب الأقصى[185].

على حين يذكر ابن قطان أنه ولد بموضع يسمى "نومكران" وهو موضع لا ماء فيه، وإنما يشرب أهله ماء المطر.[186]

أما في تاريخ ميلاده فقد ذكر المؤرخون عدة روايات تدل على اضطرابهم في تحديد سنة الولادة، فمنهم من قال سنة 473ه، ومنهم من قال سنة 469ه[187]، وهناك من ذكر أن ابن تومرت ولد عام 480ه/1087م لأسرة تعيش في قرية من قرى هرغة على سفح جبل أجلير[188].

ولكننا في هذا البحث نستند إلى قول عبد المجيد النجار بعد عرضه عدة روايات لمؤرخي زمان محمد بن تومرت أو الذين جاءوا بعده على سبيل المثال ابن القطان، ابن عذاري، ابن الأثير والنويري، ابن خلكان، الزركشي، ابن

---

[184] تاريخ دولتي المرابطين والموحدين، محمود السيد، مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية، د.ط. 1999،: 45.

[185]المرجع نفسه : 45.

[186] نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان، ابن قطان تحقيق: مكي محمود علي، دار الغرب الإسلامي، تونس، ط1، د.س: 63

[187] دولة الموحدين،علي محمد الصلابي: 17.

[188] تاريخ دولتي المرابطين والموحدين، محمود السيّد: 45.

الخطيب وابن قنفد وغيرهم... [189]، حيث يذكر قائلا: " إذا تفحصنا العناصر الآنفة الذكر، وقارنا بينها، تبين لنا أن العنصر الأول هو الجدير بأن يعتبر أولى في تحديد تاريخ الميلاد، وذلك لأنه يتعلق بتاريخ الوفاة ومقدار العمر عندها، وهما الأمران اللذان يكونان أكثر ضبطا من قبل المؤرخين، حيث إن الشخص إذا كانت مكانته مرموقة، اشتهرت بين الناس سنة وفاته، كما اشتهر مقدار عمره"[190].

وهو يقصد بالعنصر الأول مجموعة المؤرخين الذين ذهبوا إلى تحديد عمر بن تومرت عند وفاته، ومنهم: ابن قطان و ابن عذاري وابن الأثير والنويري.

ثم يضيف قائلا: "أما العنصر الثاني فهو أقل أهمية، وذلك باعتبار التباعد الصارخ بين التواريخ الواردة فيه"[191].

أما عن أصحاب العنصر الثالث فيقول: "وكذلك العنصر الثالث فهو قليل الغنى أيضا، وذلك لأن عبارة "في شبيبته" –التي أوردها ابن خلكان وابن

---

[189] ينظر المهدي بن تومرت، حياته وآراؤه وثورته الفكرية والاجتماعية وأثره بالمغرب، عبد المجيد النجار، دار الغرب الإسلامي، ط1 . 1973 : 31.

[190] المرجع السابق : 32.

[191] المرجع نفسه : 32.

الأثير- عبارة غير منضبطة، فالشبيبة تمتد سنوات طويلة من حين البلوغ إلى ما بعد الثلاثين من العمر"[192].

وبعد نظره في العناصر الثلاثة، يرى أن أصحاب العنصر الأول هم أقرب إلى الحقيقة في سنة الميلاد في قوله: "وحينما نعتمد على الترجيح تصبح السنة الأكثر احتمالا لميلاد بن تومرت هي سنة 473ه، وهو مايبدو لنا أقرب إلى الحقيقة"[193].

ب . مرحلة الدراسة والتفقه والرحلة في طلب العلم:

وإذا حاولنا الآن أن نعرف مراحل تعلم ابن تومرت وتفقهه فإننا سنجد فراغا كبيرا، يكاد يكون شاملا، لأن الكتب التي أرخت سيرته لم تذكر شيئا ذا قيمة بالنسبة إلى الفترة التي سبقت رحلته إلى الأندلس، إلا ما يذكره عرضا ابن القطان وابن خلدون من أنه نشأ ملازما للمسجد والدرس، محبا للعلم، ووافق على ذلك بعض الباحثين الأوروبيين أمثال ألفريد بل، وشارل أندري جوليان[194].

---

[192] نفسه : 32.

[193] المرجع السابق : 33.

[194] ينظر: الإمامة عند ابن تومرت، علي الإدريسي: 108.

ومن ثمّ فكانت محطة رحلته الأولى الأندلس، وذلك سنة 500ه، ولا نعلم شيئا كثيرا عن إقامته في هذه الديار، إلا أنه تتلمذ لقاضي قرطبة جعفر حمدين بن محمد بن حمدين (ت 548ه)[195].

وقد كان حال الأندلس مماثلا لحال المغرب في مجال علم الأصول باستثناء المذهب الظاهري الذي نشره ابن حزم (ت 456) ودعا إليه، والذي يقوم على أن المصدر الفقهي الوحيد هو النصوص، "ترك الأخذ بالرأي بكافة ضروبه من قياس ومصلحة واستحسان وذرائع"[196].

ومن ثم فإن المذهب كان أول ثورة في الأندلس على علم الفروع، قد جلب إليه نظر الطلاب الشباب أمثال ابن تومرت...

وبما أن زمن إقامته بالمغرب قبل بدء رحلته قد امتد إلى ما بعد الخامسة والعشرين من عمره، فلا بد أن يكون بعد حفظ القرآن قد تناول شيئا من مبادئ العلوم الشرعية، وخاصة العلوم الفقهية لنفاق سوقها في ذلك الوقت، ومن الراجح أن يكون قد أخذ بجملة صالحة من الأدب وعلوم اللغة، وهو ما يؤكده ما آل إليه أمره من فصاحة اللسان والتضلع من العربية.

---

[195] نظم الجمان في أخبار الزمان، ابن القطان:64

[196] الإمامة عند ابن تومرت، علي الإدريسي: 109.

وتفيد بعض الإشارات التاريخية إلى أن ابن تومرت أبدى نباهة في طلب العلم، وكان على شغف في تحصيله يبدو في كثرة ملازمته للمساجد، وقد كان ذلك مناط ملاحظة من قبل أسرته وقومه، كما كان ينال به شيئا من الظهور والتميز بين أقرانه[197]،وهو ما نستخلصه من قول ابن خلدون: "وشب محمد هذا قارئا محبا للعلم، وكان يسمى "أسفو" ومعناه الضيلاء لكثرة ما كان يسرج من القناديل بالمساجد لملازمتها"[198]

ولا شك أن ابن تومرت بدأ حياته العلمية بالتردد على بعض الكتاتيب لحفظ القرآن الكريم، وقد استغرق ذلك صباه كاملا إلى أول سنوات الشباب دون أن يتناول شيئا من العلوم الأخرى، وهي عادة أهل المغرب كما وصفها ابن خلدون بقوله: "فأما أهل المغرب فمذهبهم في الولدان الاقتصار على تعليم القرآن فقط، وأخذهم أثناء الدراسة بالرسم ومسائله، واختلاف حملة القرآن فيه، لا يخلطون ذلك بسواه في شيء من مجالس تعليمهم... وهذا مذهب أهل الأمصار بالمغرب ومن تبعهم من قرى البربر أمم المغرب في ولدانهم إلى أن يتجاوزوا حد البلوغ إلى الشبيبة"[199].

---

[197] ينظر: المهدي ابن تومرت، عبد المجيد النجار: 60.
[198] العبر، عبد الرحمن ابن خلدون، تح: خليل شحاذة، دار الفكر، بيروت لبنان،ط.4، 2000 : 465/6.
[199] المقدمة، ابن خلدون: 588.

تاقت نفسه للمزيد من العلوم الشرعية، فقصد المشرق الإسلامي لينهل من منابع العلم، ومصادر المعارف، ومهد الحضارات، ما يفيده في تحقيق أهدافه التي يصبو إليها، "فبدأت رحلته سنة 500ه، فحج وشرع في طلب العلم، ودامت رحلته خمسة عشر عاما كان لها الأثر المباشر في تشكيل شخصيته والتأثير في آرائه وأفكاره."[200]

ومكث في الحواضر الإسلامية من أجل التعلم في كل من بغداد والإسكندرية والحجاز، وكان قبل الرحلة المغربية يسافر إلى الأندلس حيث نزل بقرطبة[201]، ودرس بها على القاضي أبي جعفر حمدين بن محمد بن حمدين إلا أن الإقامة في قرطبة لم تدم طويلا بل كانت محطة عبور.

ثم توجه ابن تومرت بعد ذلك إلى تونس بحرا، ونزل بالمهدية حيث درس بها على أبي عبد الله المازري، ثم قصد مصر مرورا بجزيرة جربة، حيث أقام بها بعض الأيام، تلقى فيها دروسا وأخذ علما من الشيخ أبي بكر الطرطوشي[202]، ولم يمكث طويلا في مصر حيث فضل الذهاب إلى الحجاز

---

[200] ينظر : صفحات مشرقة من التاريخ الإسلامي، محمد علي الصلابي: 386.

[201] البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ابن عذاري المراكشي، تح: ليفي بروفنسال وكولان، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ط3، 1983 : (435/1).

[202] ينظر، دولة الموحدين، محمد علي الصلابي: 18.

لأداء فريضة الحج[203]، ثم توجه إلى العراق ومكث ما يزيد عن عشر سنوات، وهناك تبحر في علم الكلام وعقائد الاعتزال والأشاعرة، وأخذ من كل ما يخدم فكرته طرفا، قال ابن خلدون: "ودخل العراق، ولقي جلة العلماء يومئذ فحول النظار، وأفاد علما واسعا"[204].

***أشهر شيوخ ابن تومرت:**

إن الشيوخ الذين أخذ عنهم ابن تومرت ينتمون إلى مختلف المذاهب السنية، وقد أفاده هذا حقا في التضلع من المسائل الخلافية، وعلاقتها بأصول الفقه، وكان من أهم هؤلاء الشيوخ: "أبو بكر الطرطوشي الأندلسي الأصل، الاسكندراني الإقامة والمالكي المذهب، والذي ربطته به علاقة خاصة، إذ أخذ عنه أصول مذهب مالك" [205]، ولكن أهمية الطرطوشي لا تكمن في كونه أحد أئمة المذهب المالكي الكبار فقط، وإنما تكمن في نظراته الفلسفية إلى الحياة وإلى الإنسان وحقيقته ومصيره.

ومن الشيوخ الذين حظوا بعناية ابن تومرت واهتمامه في المشرق الإمام أبو حامد الغزالي، وهو بلا منازع أشهر أئمة الأشعرية في النصف الثاني من

---

203 ينظر: العبر، ابن خلدون: (226/6).
204 المصدر نفسه: (226/6).
205 الإمامة عند ابن تومرت، علي الإدريسي: 110.

القرن الخامس، بل يعد قمة الهرم في المذهب الأشعري وموسوعة في الفكر الإسلامي وثقافته [206]، لكن وقعت أحداث زادت من ذيوع الغزالي في بلاد المغرب بعد إحراق كتابه (إحياء علوم الدين) في الأندلس، وكان ينزع منزع التحرر العقلي ويشجب الجمود والتقليد، وقد تأثر به ابن تومرت وتأسى به في أطروحته التعبيرية[207].

وأما شيخه أبو الحسن علي بن محمد الملقب بعماد الدين، والمعروف بالكي الهراسي (ت 504ه/1110م) فقد كان عالما في الفقه والأصول والخلافيات والتفسير، وله في التفسير كتاب "أحكام القرآن".

وأما المبارك عبد الجبار (ت 500ه/ 1106م) فقد كان محدثا مكثرا، إلا أن ابن تومرت لم يطل تتلمذه عليه حيث توفي السنة نفسها التي قدم فيها إلى بغداد.

وكذلك أبو بكر الشاشي (ت 507ه) فقد كان عالما في أصول الدين وأصول الفقه، كما كان في الفقه رأس الأئمة الشافعية بالعراق[208].

---

[206] ينظر، المرجع السابق: 112.

[207] ينظر صفحات مشرقة من التاريخ الاسلامي ،علي محمد الصلابي: 388.

[208] ينظر، دولة الموحدين،علي محمد الصلابي: 21.

لقد استطاع ابن تومرت أن يستفيد من رحلته المشرقية وأن يتحصل على علوم متنوعة تجمع بين العلوم النقلية والعقلية، فضبط الأصول وعلم الكلام، وعقائد الأشاعرة، وتأثر بالمعتزلة والشيعة وغيرها من المذاهب، وحضر مناقشاتهم وندواتهم واطلع على فلسفتهم وروح حركاتهم وبذلك تطورت آراؤه وأفكاره.

ج–وفاة ابن تومرت:

منذ سنة 524ه أخذت الاشتباكات تتزايد مع جيش المرابطين وتأخذ الصدام المسلح،وفي هذا التاريخ جهز المهدي بن تومرت جيشا جرارا من الموحدين، وجهه إلى مراكش عاصمة المرابطين، وقال لهم: "اقصدوا هؤلاء المارقين المبدلين الذين تسموا بالمرابطين، فادعوهم إلى إماتة المنكر وإحياء المعروف..."[209]

خرج جيش الموحدين إلى مدينة مراكش في أربعين ألفا بقيادة عبد المؤمن بن علي [210]، فوصلوا إلى موضع اسمه "البحيرة" يقع في ظاهر مراكش، فخرجت إليهم جيوش المرابطين بقيادة الزبير بن علي بن يوسف من باب إيلان

---

[209] ينظر: عبد المؤمن بن علي موحد بلاد المغرب، صالح بن قربة، وزارة الثقافة الجزائر العاصمة، الثقافة العربية، 2007، د.ط: 27.

[210] المعجب في تلخيص أخبار المغرب، عبد الواحد بن علي المراكشي،: 135.

، ونزل المرابطون قريبا من معسكر الموحدين، فدعاهم عبد المؤمن إلى دعوة ابن تومرت، وحاول قائد المرابطين أن يحذر عبد المؤمن من عاقبة الخروج على الجماعة والفتنة، فزاده ذلك طمعا في المرابطين، واشتبك الجيشان في معركة عنيفة انتهت بهزيمة الموحدين، ومهما يكن من شيء فإن معركة "البحيرة" تعتبر بحق أعنف المعارك التي وقعت بين المرابطين والموحدين في حياة المهدي.

كما تعتبر أيضا أعظم موقعة خسرها الموحدون، قتل فيها عدد كبير من بينهم أبو عبد الله الوانشريسي وسليمان آحضري، وأبو عمران موسى الجدميوي وقائد جيشهم الذي قام قبل دخوله المعركة بعملية غير إنسانية، وهي عملية التمييز بين جنوده فقتل كل من كان يشك في إخلاصه قبل المعركة، ونجا عبد المؤمن بن علي في نفر من أصحابه، وقد أصيب بجرح عميق في فخذه الأيمن، فلما وصل الخبر إلى المهدي قال: "أليس قد نجا عبد المؤمن؟ قالوا: نعم، قال: لم يفقد أحد" [211]، وعلى الرغم من قوة ابن تومرت على الصعوبات، وقدرته الفائقة على استخدام الأحداث المنشطة من أجل إنجاح أهدافه ومراميه، فإنه قد تأثر تأثرا عظيما بهزيمة الموحدين في معركة البحيرة وبوفاة البشير، فقد أحس

---

[211] المعجب في تلخيص أخبار المغرب، عبد الواحد المراكشي: 136.

ابن تومرت بالمرض بعد أربعة شهور من هذه الواقعة، فلزم داره بتينملل ولم يخرج منها إلا إلى قبره في المسجد الملاصق لبيته، حيث دفن به سرا في 29 رمضان سنة 524ه، وكتم أصحابه نبأ وفاته ثلاث سنوات، قام خلالها الموحدون بشن الغارات على المرابطين ثم أعلنت وفاة المهدي رسميا سنة 527ه، وقام بأمر الموحدين "عبد المؤمن بن علي"[212].

وذكر في كتاب المجموع[213] أن الإمام المهدي قبيل وفاته جلس ذات يوم في داره، إذ سمع صوتا رقيقا في الدار يقول:

كَأَنِّي بِهَذَا البَيْتِ قَدْ بَادَ أَهْلُهُ وَقَدْ دَرست أَعْلاَمُهُ وَمَنَازِلُهْ

فأجابه المهدي:

كَذَاكَ أُمُور النَّاسِ يَبْلَى جَدِيدُهَا وَكُلُّ فَتًى حَقًّا سَتَبْلَى خَصَائِلُهْ

فأجابه الهاتف فقال:

تَزَوّد مِنَ الدُّنْيَا فَإِنّكَ رَاحِلٌ وَإِنّكَ مَسْؤُول فِيمَا أَنْتَ قَائِلُهْ

فأجابه المهدي:

أَقُولُ بِأَنَّ الله حَقٌّ شَهِدتُه وَذَلِكَ قَوْلٌ لَيْسَ تَخْفَى فَضَائِلُهْ

فأجابه الهاتف، فقال:

فَخُذْ عُدّةَ المَوْتِ إِنّكَ مَيّتٌ وَقَدْ أَزَف الأَمْر الذِي أَنتَ نَازِلَهْ

فأجابه المهدي:

مَتَى ذَاكَ خَبّرَنِي هَدَيْتُ فَإِنّنِي سَأَفْعَلُ مَا قَدْ قُلْتُ لِي وَأُعَاجِلُهْ

---

212 عبد المؤمن بن علي موحد بلاد المغرب، صالح بن قربة: 29.

213 كتاب مفقود والظاهر أنه تناول خصوصا تاريخ دولة الموحدين، وقد وردت هذه الأبيات بروض القرطاس لابن زرع: 126.

فأجابه الهاتف، فقال:

تَبِيتُ ثَلاثًا بَعْدَ عِشْرِينَ لَيْلَةً إِلَى مُنْتَهَى الشّهْرِ فَمَا أَنتَ كَامِلُهْ [214].

قال فما لبث إلا ستة أيام فمات بعدها، وقد خلف الكثير من الوصايا التوجيهات لجماعته من الموحدين طالبا منهم العمل بها والحرص عليها[215].

2-عبد المؤمن بن علي:

*مولده ونسبه:

عبد المؤمن بن علي بن علويّ، سلطان المغرب الذي يلقب بأمير المؤمنين، الكومي القيسي، المغربي ولد بأعمال تلمسان، وكان أبوه يصنع الفخار[216]، وقيل تحدث عن نفسه فقال: "إنما نحن من قيس بن غيلان بن مضر بن نزار، والكومية علينا حق الولادة، والمنشأ فيهم، وهم أخوالي"[217].

وقد يتصل نسب عبد المؤمن بن علي بقبيلة "كومية" التي تعتبر إحدى بطون فاتن الذين يجتمعون بدورهم مع قبيلة زناتة في ضرى ابن زجيك من سلسلة البربر البتر.

---

214 كتاب أخبار المهدي بن تومرت، تأليف أبو بكر بن علي الصنهاجي المكنى بالبيدق، تحقيق عبد الحميد حاجيات، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986، ط،2: 63-64.

215 ينظر: المصدر نفسه: 64-65.

216 ينظر: سير أعلام النبلاء، شمس الدين الذهبي: (366/20).

217 المصدر نفسه، (367/20).

ولد عبد المؤمن بن علي في قرية صغيرة تسمى " تاجرا" [218] بضواحي هنين وهي منطقة تقع بأعالي الجبال، ورغم ذلك فالخلاف قائم بين المؤرخين في تحديد عام ميلاده بسبب انعدام اهتمام العامة بتدوين أحداث الميلاد، ورغم كل ذلك فقد جعلوا تاريخ ميلاده في الخمس عشرة سنة الأخيرة من القرن الخامس الهجري، الحادي عشر الميلادي[219].

يقول عبد الواحد المراكشي موضحا هذه المسألة: " كان مولده في آخر سنة 487ه في أيام يوسف بن تاشفين، وكانت وفاته في شهر جمادى الآخرة سنة 558ه"[220].

فيكون إذا سن عبد المؤمن –حسب هذه الرواية– إحدى وسبعين سنة، وهذا ما يتفق مع قول الذهبي: "وكان مولده سنة سبع وثمانين وأربعمائة" [221]، لكن ابن أبي زرع لم يشر إلى تاريخ الميلاد، بل ذكر سنه عند وفاته: حيث كانت سنه يوم توفي ثلاثا وستين سنة.. وقيل أربع وستون، ذكره ابن صاحب الصلاة في كتاب "المن بالإمامة"، ويتفق المؤرخون جميعا على أن وفاة عبد

---

[218] تقع " تاجرا" بالقرب من مدينة "ندرومة" وعلى بعد ثلاثة أميال من مرسى هنين، وسط منطقة غنية بالغابات، وهي تشبه الحصن في الجبل الذي يشرف على هنين من الناحية الشرقية، عبد المؤمن بن علي موحد بلاد المغرب، صالح بن قربة: 11.

[219] عبد المؤمن بن علي موحد بلاد المغرب، صالح بن قربة: 11.

[220] المعجب في تلخيص أخبار المغرب، عبد الواحد المراكشي: 139.

[221] سير أعلام النبلاء، الذهبي: 367/20.

المؤمن كانت سنة 558ه فيكون تاريخ ميلاده –حسب قول ابن أبي زرع– سنة 494ه أو 495ه.

وكما اختلف المؤرخون في سنة ميلاده، اختلفوا أيضا في نسبه، فمنهم من يجعله متصلا بالرسول صلى الله عليه وسلم اتصالا وثيقا، فيربطه بالنبي في مضر بن نزار، ثم نسبه إلى آل البيت عن طريق الأدارسة، وفريق آخرأرجح نسبه إلى البربر مع ربط اتصاله بمضر بن نزار في شيء من ذلك، واكتفى البعض الآخر بانتسابه إلى البربر لا غير[222].

فالبيدق الذي ينسب عبد المؤمن إلى مضر بن نزار يقول: "والخليفة رضي الله عنه من ولد سليم بن منصور بن قيس بن عيلان بن مضر بن مضر جد النبي صلى الله عليه وسلم لا شك في ذلك، نزل أجداده بساحل تلمسان فرارا من بعض الفتن بالأندلس، وجاور بعض مطمامة إخوة زناتة، فنسب ولده إليهم بالجوار والحلف هذا مما لا شك فيه عند أهل العناية بهذا الشأن"[223].

ومن تمّ فالملاحظ من كلام البيدق أن عبد المؤمن عربيّ مضريّ هاجر أجداده من الجزيرة العربية إلى الأندلس، ثم نزح جده الأول الذي استقر

---

[222] ينظر: عبد المؤمن بن علي موحد المغرب، صالح بن قربة: 12-13.
[223] المرجع نفسه: 13.

بالمغرب الأوسط فارا من الأندلس لما وقع بها من فتن، وجاور بعض قبائل المغرب الأوسط محتميا بهم، فنسبت ذريته إلى البربر عن طريق الجوار.

***نشأته وطلبه العلم:**

نشأ عبد المؤمن منذ طفولته محبا للقراءة والدرس، ألحقه والده بكتاب القرية (تاجرا)، حيث تعلم مبادئ الكتابة والقراءة بمسقط رأسه ثم أخذ في حفظ القرآن الكريم وإلى جانب ذلك تعلم بعض العبادات كالصلاة والصوم والزكاة، وألم بشيء من السيرة النبوية الشريفة [224]، مع العلم أن والده كان يتوجه إلى مدينة تلمسان قصد التجارة ويبيع الأواني الفخارية، وكثيرا ما يختلف إلى المسجد للصلاة والاستماع إلى الدروس، وكان جامع تلمسان في ذلك الوقت مركزا دينيا للعبادة ومدرسة لتعليم الدروس الدينية واللغوية، فظهرت له فكرة إلحاق ولده عبد المؤمن بهذا المسجد ليتابع الدرس والتحصيل.

هكذا شب عبد المؤمن محبا للعلم والمعرفة، يلازم المسجد لتلاوة القرآن الكريم، وذكر ابن خلدون أن من أساتذته بتلمسان: ابن صاحب الصلاة وعبد السلام البرنسي إمام عصره في علوم الفقه والحديث والتفسير والكلام[225].

---

[224] المرجع السابق:15.
[225] ينظر: المرجع السابق:15.

وأقبل عبد المؤمن على طلب العلم إقبالا شديدا بروح طموحة وحماس فياض، وتزود من مواد الدراسة ما يؤهله إلى الرحلة في طلب العلم، ولما بلغ نحو العشرين من عمره اعتزم الرحلة إلى المشرق للدراسة والتحصيل اقتداء بمشاهير علماء المغرب في عصره.

ج ـــ **لقاؤه بمحمد بن تومرت:**

عندما رجع ابن تومرت إلى إفريقية هو ورفيقه الشيخ عمر الهنتاني صادف عبد المؤمن بن علي، فحدثه وآنسه، وقال: "إلى أين تسافر؟ قال: أطلب العلم، قال: وجدت طلبتك، ففقهه وصحبه وأحبه، وأفضى إليه بأسراره لما رأى فيه من سمات النبل"[226].

تبدأ قصة لقائه بهذا العالم بخروجه من قرية (تاجرا) بعد وفاة والده، بصحبة عم له يسمى "يعلو" بقصد السفر إلى المشرق من ميناء بجاية فنزلا بادئ الأمر في بلاد متيجة حيث أقاما بها عدة أيام، ثم ارتحلا حتى وصلا إلى بجاية، ونزلا في مسجد "الريحانة"، فلما صليا الصبح سمعا الناس يقولون سيروا بنا نحو الفقيه، فقال عبد المؤمن: "ومن الفقيه؟ فقالوا: "السوسي" وهو عالم المشرق

[226]ينظر:المعجب في تلخيص أخبار المغرب، عبد الواحد المراكشي: 128 .

والمغرب وليس كمثله أحد من الناس، وقد سمي ابن تومرت: "العالم السوسي" بعد عودته من المشرق"[227].

فقال لعمه: سر بنا يا عم نحوه إن شاء الله، ولما وصل عبد المؤمن أرض بجاية وفي الليل قرأ حزبه وصلّى وِردَه في تلك الليلة، ثم نام فرأى أن الناس يبايعونه، فلما أفاق أعلم عمه بها، فقال له: اكتم هذا الأمر فإنه رأت أمك وهي بك حامل كأن النار تخرج منها فتحرق المشرق والمغرب والقبلة والجوف، فقال لها المعبر بتلمسان: لا لهذه المرأة من مولود يكون أمره يأخذ المشرق والمغرب والقبلة والجوف، ولكن اكتم هذا الأمر ولا تعرف به إنسانا، وكذلك قال لي أبوك "علي": ولقد رأيت في أمرك موعظة كنا نحصد الزرع وأمك بك حامل[228].

فاتجه عبد المؤمن إلى "ملالة" رغبة في سماع هذا الأستاذ الذي أثنوا عليه لفصاحته وعلمه.

كان عبد المؤمن يجلس أمام ابن تومرت في درسه برغبة صادقة في العلم، وبشوق متدفق إلى الوقوف على الآراء الحديثة فيه، وكان ابن تومرت يمدحه بهذه الأبيات[229]:

---

[227] ينظر: عبد المؤمن بن علي موحد بلاد المغرب، صالح بن قربة: 16.

[228] المرجع السابق: 17.

[229] صفحات مشرقة من التاريخ الإسلامي، علي محمد الصلابي: 450.

تَكَامَلَتْ فِيكَ أَوْصَافٌ خُصِصْتَ بِهَا   فَكُلّنَا بِكَ مَسْــرُورٌ وَمُغْتَبِطُ

السّنُ ضَاحِكَةٌ وَالكَـــــــفُّ مَانِحَةٌ   وَالنّفْسُ وَاسِعَةٌ وَالوَجْهُ مُنْبَسِطُ

وهو لا يكتفي بهذا، بل كان يقول لأصحابه: "صاحبكم هذا غلاب الدول"[230]، حيث كان يعمل ابن تومرت على أن يكون عبد المؤمن بن علي صورة حقيقية له، ولذلك أعده الإعداد اللازم للقيادة والزعامة والرياسة، وعلمه ودربه وأمر أتباعه بإطاعته في كل ما يقول، وأن يقتدوا به في كل ما يفعل، وكان لعبد المؤمن من الاستعداد الفطري بحيث يستطيع أن يتقن كل ما يقال له من تعليم وتدريب، فعرف كيف ينهض بالدولة والسياسة في عالم المغرب والأندلس.

3-تأسيس الدولة الموحدية:

أ-المنهج السياسي:

حرص ابن تومرت بعد رجوعه أن يسلك طريق النصح والإرشاد، ولذلك اتصل بالأمراء وولاة الأمر في المدن والعواصم، يعظهم ويرشدهم ويبين لهم مواقع الانحراف والفساد، ويحملهم المسؤولية في ذلك، ويحثهم على القيام بالأمر الواجب من محاربة المنكر ونشر المعروف، وتوّج أمره بنصح أمير

---

[230] المرجع نفسه: 450.

المسلمين "علي بن يوسف" ونبّهه إلى انتشار المنكرات، ووعظه وأغلظ له القول وقال له: "إنما أنا رجل فقير طالب الآخرة ولست بطالب دنيا ولا حاجة لي بها، غير أني آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر، وأنت أولى من يفعل ذلك، فإنك مسؤول عنه، وقد وجب عليك إحياء السنة وإماتة البدعة، وقد ظهرت بمملكتك المنكرات، وفشت البدع، وقد أمرك الله بتغييرها وإحياء السنة بها إذ لك القدرة على ذلك وأنت المأخوذ به والمسؤول عنه"[231].

من خلال ذلك، نرى أن ابن تومرت انتهج سياسة واضحة المعالم للقضاء على النظام القائم، وبناء نظام جديد وكانت خطته تسير وفق سبل ثلاث: حملة على المرابطين، إقامة تنظيم سياسي، تعبئة نفسية للأنصار.

إن الأساس العقدي، أو النظري ضروري لأية حركة سياسية ولكنه غير كاف لبلوغ هذه الحركة، ومراميها وغايتها إن لم تنشئ لنفسها قواعد تنظيمية، تكفل اتخاذ القرار السياسي الملائم، وضمان تنفيذه بفعالية، وحماية نتائجه من أي انحراف أو ادعاء، وكذلك كانت الحال بالنسبة إلى ابن تومرت، الذي انتهى إلى إنشاء حركة الموحدين ووضع لها أسساً تنظيمية وحدد لها أهدافها، وقد نظم أنصاره تنظيما وظيفيا هرميا، وبفضله استطاع خلفه تأسيس أكبر دولة إسلامية

---

[231] تاريخ الدولتين، الزركشي: 121.

في المغرب الإسلامي [232]، عبر عن ذلك ابن خلكان فقال: " ولم يفتح ابن تومرت شيئا من البلاد، وإنما قرر القواعد ومهدها ورتب الأحوال ووطدها"[233].

والسؤال المطروح هنا هو: متى بدأ ابن تومرت التفكير في تنظيم حزب الموحدين؟ وما الطرق التي سلكها من أجل تحقيق ذلك؟ وما هي طبقات هذا الحزب؟

أولا: بداية التفكير في التنظيم:

ترجع بداية التفكير في تنظيم الدولة إلى أحداث وقعت في مسيرة ابن تومرت، وهي:

***الأمر الأول:** أن ابن تومرت حين نزل بجاية راح يغير المنكر إلى أن أغضب سلطانها الحمادي فتآمر عليه[234].

وقد استنتج ابن تومرت من هذه الحادثة، أن أي قضية إذا أريد لها النجاح ينبغي لها الحماية، وأفضل حماية في نظره هي حماية جمهور الأمة.

***الأمر الثاني:** أنه أثناء إقامته في "هلالة" التقى بشخص، كان ذراعه اليمنى في إنقاذ أفكاره وخططه، هذا الشخص هو عبد المؤمن بن علي الكومي خليفته فيما

---

[232] ينظر: الإمامة عند ابن تومرت، علي الإدريسي: 193.
[233] وفيات الأعيان، ابن خلكان: 55.
[234] ينظر: نظم الجمان، ابن القطان: 41،42.

بعد، وتختلف الروايات حول هذا اللقاء [235]، وأهمها رواية البيدق التي تقول :

"إن عبد المؤمن كان في طريقه إلى المشرق من أجل الحج وطلب العلم، فأطلعه ابن تومرت على أن ما يريد اقتباسه بالمشرق قد أتاه بالمغرب"[236].

ويرى المؤرخ الفرنسي "لي تورنو" أن اللقاء بين الرجلين تم من غير تدبير، ولا سابق علم، وأن هذا ما يذهب إليه أغلب المؤرخين[237].

ومن تمّ فالملاحظ من مختلف الروايات أن ابن تومرت احتفظ بعبد المؤمن ليس لنباهته العلمية فقط، وإنما لما توسّم فيه من قدرة على القيادة وبناء الدولة.

ثانيا: طبقات الموحدين:

إن الطبقات المقصودة في هذا المقام لا تتعلق بمراتب الدولة ووظائفها الرسمية، وإنما هي التنظيم السياسي الذي أوجده ابن تومرت، وقد امتازت حركة الموحدين دون غيرها من الحركات التي قامت في بلاد المغرب بهذه

---

[235] ينظر: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، المراكشي: 265-266.
[236] كتاب أخبار المهدي: البيدق: 55-57.
[237] حركة الموحدين بالمغرب، روجي لي تورنو، ترجمة أمين طيبي، الدار العربية للكتاب، تونس، 1982: 24.

الطبقات، وعلى أساسها قامت دولة الموحدين[238]، ولذلك نظم ابن تومرت أتباعه في طبقات متباينة في عددها، مختلفة في واجباتها الملقاة على عاتقها، "وقد بلغت طبقات الموحدين التي صنفوا بموجبها أربع عشرة طبقة، كانت الطبقات الثلاث الأولى أهم هذه الطبقات، من حيث انتماء أكبر رجال الموحدين إليها، من مشايخ القبائل وزعماء المصامدة وكبار الشخصيات، الذين تتوفر لهم الكفاءات العقلية والقدرات العسكرية، وكانت أهم واجبات هذه الطبقات هي معالجة أمور الموحدين، وتسيير دقة الحكم، أما الطبقات الأخر فكانت واجباتها عسكرية وعلمية ودينية"[239].

ولكن ما يستدعي الانتباه منذ البداية هو عدم وجود الاتفاق بين المؤرخين في عدد هذه الطبقات، فكتاب الأنساب في معرفة الأصحاب يجعلها ثلاث عشرة، أهمها: أهل دار المهدي، وأهل الجماعة، وأهل خميس، والمستدركون بعد التمييز، والقبائل وأهل الحزب [240]، أما ابن صاحب الصلاة (ت 594)

---

[238] الإمامة عند ابن تومرت، علي الإدريسي: 202.

[239] دولة الموحدين، علي محمد الصلابي: 81.

[240] ينظر: المقتبس من كتاب الأنساب: 29-32.

فيجعلها ثمان طبقات وهي: أهل الجماعة، وأهل الحزب، وأهل الخمسين، وأهل الدار، وأهل سبعين، والحفاظ، وطلبة الحضر، وأخيرا طلبة الموحدين[241].

على حين يجعلها ابن قطان أربع عشرة، منها الجماعة أو العشرة، وأهل خمسين، وأهل سبعين، والطلبة والحفاظ وأهل الدار، وعدّ القبائل الموحدية طبقات مستقلة عن بعضها بعضا، وأورد في الأخير طبقة أخرى سمّاها أهل القبائل، وهي غير قبائل الموحدين[242].

ويعرض المؤرخ الفرنسي" شارل أندري جوليان" لأربع طبقات بشيء من التفصيل، وهي: " أهل الدار، وأهل العشرة، ومجلس الخمسين، ومجلس القبائل، ثمّ يشير بعد ذلك إلى النظام الهرمي في الدولة الموحدية الذي يبدأ بالمحتسب وينتهي بالرماة ولا يذكر شيئا عن الطلبة "[243].

وقد جعل عبد المجيد النجار هذه الطبقات في أربعة أجهزة أساسية، وبيّن مهماتها التي أُنيطت بها:

-**الجهاز الأوّل:** جهاز سياسي ويشتمل عل المجالس الثلاثة المتقدمة الذكر: مجلس العشرة، مجلس الخمسين، مجلس السبعين.

---

[241] ينظر: المن بالإمامة على المستضعفين، عبد الملك بن صاحب الصلاة، تحقيق عبد الهادي تازي، ط 1، دار الأندلس، بيروت، 1964: 51-275.

[242] نظم الجمّان، ابن القطان: 28

[243] تاريخ إفريقيا الشمالية، شارل أندري جوليان، ترجمة محمد مزالي، والبشير بن سلامة، الدار التونسية للنشر، تونس، و، ش، و،ن،ت، الجزائر،1978: 204.

-**الجهاز الثاني**: جهاز علمي ثقافي؛ ويشتمل على طبقة الطلبة، وهم الذين بلغوا درجة مرموقة من العلم، وطبقة الحفاظ وهم صغار الطلبة.

-**الجهاز الثالث**: جهاز عسكري؛ ويشتمل على طبقة الجند وطبقة الرماة والغزاة.

-**الجهاز الرابع**: جهاز شعبي يضم مجموعة من القبائل وهي: هرغة، تينملل، جدميوة، جنفيسة، هنتاتة، أهل القبائل...[244].

ونستخلص من هذه الروايات أنّ المؤرخين القدامى يتفقون على ذكر أهمّ الطّبقات، خاصّة العشرة، وأهل الخمسين، والطلبة، وقبائل الموحدين، ويختلفون في الباقي، وقد اكتفى الدارسون المعاصرون من جهتهم بإعادة صياغة أسماء الطبقات كما أثبتها ابن صاحب الصلاة وابن القطّان.

ثالثا: مهمة حزب الموحدين:

كانت مهمة ابن تومرت صعبة جدا، حيث إنه استهدف دولة عرفت بجهادها في الصحراء الكبرى، وفي الأندلس، وكان لها الفضل بعد الله في توحيد المغرب الأقصى مع الأندلس، واشتهر حكامها بالصلاح والعدل والجهاد

[244] صفحات مشرقة من التاريخ الإسلامي، علي محمد الصلابي: 435.

وحب الخير لعموم الأمة، ولذلك حرص على تعبئة أنصاره وإقناعهم أنّهم على درب الحق، وأنّ خصمهم على درب الباطل[245].

وقد اعتمد ابن تومرت في تعبئته لأنصاره على:

أ-غرس الثقة في نفوسهم وبأنّهم على حق.

ب-الثقة بالإمام وإقناعهم بأنّه المهدي المعصوم من خلال ظهوره بمظهر الاستقامة والتدين والإخلاص.

ومهمة حزب ابن تومرت إذا، مهمة **مزدوجة: سياسية وتربوية**، تتمثل المهمة التربوية في جعل سلوك الموحدين قدوة لغيرهم، وفي تبليغ رسالة ابن تومرت للناس، وتتمثل المهمة السياسية في مقاطعة المفسدين (المرابطين) أوّلا، وفي جهادهم ثانيا، يوضح ابن تومرت ما ينبغي القيام به في المهمة التربوية فيقول للموحدين: " عليكم باتباع الكتاب والسنة، وتعليم التوحيد فإنّه أصل دينكم، وبه تصلح أعمالكم... وأتمروا بالمعروف، وتناهوا عن المنكر، واقطعوا المداهنة وسوء السيرة، وجميع عوائد الجاهلية، واللهو والنياحة، والسخط عند المصائب"[246]. ثم ينتقل إلى المهمة الثانية التي تحدد العلاقة بين الموحدين والمرابطين فيقول: " لا تخالطوا أهل الفساد، ولا تعاملوهم، ولا تنظروا في

---

245 صفحات مشرقة من التاريخ الإسلامي، علي محمد الصلابي: 436.

246 رسائل الإمام المهدي والخليفة عبد المؤمن في مقدمة كتاب أخبار المهدي بن تومرت، للبيذق: 08.

وجوههم...لأنهم تركوا دينهم، وأعرضوا عن آخرتهم، واستكبروا عن أشغالهم وصنائعهم..."[247].

ومن تمّ فالتوجيهات تشكل برنامجا سياسيا يستمد شرعيته وأسلوبه من عقيدة الموحدين، ويلتزم به الأنصار حتى لا تكون اجتهادات شخصية، قد تؤدي إلى عكس ما هو مطلوب، كما نجد ابن تومرت أيضا قبل أن يتوعّد المرابطين ومن أعانهم على الظلم، يأمر الموحدين بدعوتهم إلى التوبة والإنابة، والرجوع إلى الكتاب والسنة.

2-الظروف الإجتماعية والاقتصادية:

المعروف عن الدولة الموحدية أنها كانت شاسعة المساحة، مترامية الأطراف، مقسمة إلى عدة مقاطعات، يرأسها ولاة مخلصون أكفاء، سياسيا وثقافيا، "ولهذا الغرض قام عبد المؤمن بجمع ثلاثة آلاف شاب من مصمودة ومختلف الولايات، وعلمهم مختلف العلوم الدينية والحربية، وحين أصبحوا أهلا للقيام بالمسؤولية عزل بهم أشياخ الموحدين، وقلدهم مناصب عليا في الدولة،

---

[247] رسائل المهدي، المرجع نفسه: 08-09.

وكان من بينهم ثلاثة عشر من أبناء عبد المؤمن ولاّهم على المقاطعات سنة 539ه/1154م"[248].

كما كان الخلفاء الموحدون يستخلصون موارد الخزينة المالية من الضرائب والزكوات والأعشار، إضافة إلى الغنائم الحربية يشرف عليها ولاة المقاطعات، وتدخل أموال الجباية بانتظام إلى خزينة الدولة، كما يتم توزيعها بصفة عادلة على السكان فامتلأت خزينة دولتهم بالأموال التي تمكنوا بها من توفير الرخاء لشعبهم، وإنشاء جيش بري وبحري دقيق التنظيم، فقد بلغ عدد وحدات أسطول الموحدين في عهد عبد المؤمن أربعمائة قطعة موزعة على أطراف دولته الواسعة.

وعرف عهدهم تطورا حضاريا لا بأس به من رخاء اقتصادي، وأمن واستقرار وخاصة عند حكم الأمراء الأقوياء، وكانت الجاليات الأجنبية من مسيحيين ويهود موضع احترام، كما أسهمت هجرة بني هلال إلى المغرب العربي في تعريب العديد من القبائل، إضافة إلى العائلات الأندلسية التي فرّت من الأندلس إثر سقوط العديد من أقاليمها في يد النصارى، فقد أسهمت بما حملته من التقدم الحضاري.

---

[248] الجزائر بوابة التاريخ (ماقبل التاريخ إلى 1962م)، عمار عمورة، دار المعرفة، الجزائر، ج1، د.س: 172-173.

وكان المجتمع يحتكم إلى الشريعة الإسلامية،حيث يمنع شرب الخمر، ولعب الميسر وغيرها من المحرمات، كما اعتنى الموحدون بالصناعة والفلاحة والتجارة، ومن أهم صناعاتهم الجلود والورق والأثاث والزجاج والآلات الحربية والسفن التجارية والعسكرية، وكان التبادل التجاري قائما بين دول المغرب والأندلس والبلدان الأوربية و دول المشرق.

ومن أهم الموانئ التجارية في عهد الموحدين: ميناء المرسى الكبير بوهران،ومرسى هنين بتلمسان، ومرسى بجاية، بالإضافة إلى إنشاء عملة خاصة بهم وهي الدرهم والدينار، وكانت الحياة التجارية تخضع لمراقبة المعايير وأعمال التدليس[249].

3- الأسس الفكرية والعقدية:

أ-أسلوب ابن تومرت في الدعوة الموحدية:

يمتاز أسلوب ابن تومرت بالاقتضاب في العبارة والاتجاه المباشر إلى الهدف، والتحريض على عدوه وهو بارع في الانتقال من المقدمات إلى النتائج، عارف بما يريد، ولا يعلن رغبته للناس، ولكنه يحثهم على أن يتبعوا ذلك بعد أن يكون قد جعل لهم الهدف واضحا ألا وهو التوحيد: توحيد الألوهية، وتوحيد

---

[249] الجزائر بوابة التاريخ (ماقبل التاريخ إلى 1962م)، عمّار عمورة: 173.

الأمة، كما ورد أنّ "الدولة الموحدية قامت في بدايتها على فكرة الإمامة والتوحيد"[250]، وإذا كان الكفر بوحدانية الله ينجم عنه الإيمان بالطاغوت، فإن افتراق الأمة وتضييع حدود القرآن تنجم عنها الفتن.

-فما هي أصول الفتن في نظره ومن هم أصحابها؟

يرى ابن تومرت أن المرابطين وفقهاء الدنيا هم أصول الفتن في قوله: " وأما أصل الفتن فهي الافتراق وعدم الاجتماع، والاختلاف وعدم الاتفاق، وحفظ سواد الحروف، وتضييع حدود القرآن، واتباع رسوم العبادات، وإهمال معانيها، والتمسك بالأسماء وتعطيل حقائق الدين والغواية الراسخة والجهالة اللازمة، والغفلة الدائمة، وموت القلب، وخساسة الهمة، والغيّ والجزع والكسل والفشل، والشح المطاع، والهوى المُتبّع، والدنيا المؤثرة، وإعجاب كل ذي رأي برأيه"[251].

---

[250] عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس، محمد عبد الله عنان، القسم الثاني عصر الموحدين، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ط1، 1964: 630.
[251] الإمامة عند ابن تومرت، علي الإدريسي: 120.

ثم يشير إلى المرابطين كونهم أصحاب الفتن قائلا: " أما أصحاب الفتن فهم الرؤوس الجهلة، والملوك الفجرة، والدجاجلة الطغاة، والجبابرة العتاة...والطاغون والمختلفون والمبتدعون"[252].

فهو من خلال هذه العبارات الثورية الملتهبة والمقتضبة، يُحدد بدقة صفات الخصم الذي سيعلن عليه ثورته، ويقتبس من السنة النبوية ما يقنع به الناس بأن المرابطين وأنصارهم هم الذين تنطبق عليهم هذه الصفات، وقد وظف الأحاديث النبوية التي تخدمه في دعوته كحديث "أشراط الساعة" الذي يقول: "إذا وَلَدَتِ الأَمَةُ رَبَّتَها فذاك من أشراطها، وإذا رأيت الحفاة العراة الصم البكم ملوك الأرض فذاك من أشراطها، وإذا رأيت رعاة البهم يتطاولون في البنيان فذاك من أشراطها..."[253]، فهو يرى أن جل الصفات التي وردت في أشراط الساعة منطبقة عليهم وبالتالي فهو يسقط الشرعية عن خصمه، ويعتبر وجوده شرا ثم يلتمس من السنة النبوية وسيلة لمنع هذا الشر، هكذا استطاع ابن تومرت أن يضع كل المقدمات الضرورية لتحقيق أهدافه بالانتقال التدريجي من الطلب إلى المطلوب، ولما وصل إلى هذا الحد واستوثق أن حزبه في ظهور بدأ يخطب في الناس يحثهم على بيعة المهدي.

---

[252] المرجع السابق: 122.

[253] الإمامة عند ابن تومرت، علي الإدريسي: 122.

ب-الاتجاهات الفكرية في الدعوة الموحدية

يشير العديد من الدارسين إلى أن الأسس الفكرية والعقدية لحركة ابن تومرت بعيدة عن الإسلام الصحيح، ولا تتفق مع منهج أهل السنة والجماعة الذي كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه[254].

ومن أبرز الانحرافات الفكرية في دعوة ابن تومرت:

*أنه ادّعى المهدية وقال إنه هو المهدي الذي وعد الرسول صلى الله عليه وسلم بخروجه آخر الزمان، وهذا حسب القول بالمهدي المنتظر: "أي النظرية القائلة أن رجلا سيرسله الله تعالى إلى الأرض قبل الساعة لتوحيد بني البشر في ظل الإسلام، والإعداد لمصيرها النهائي"[255].

وعليه فقد بايعه أتباعه الأوائل *، حوالي سنة 515ه الموافق ل 1121م[256]، ويذكر بعض المؤرخين أن بيعة ابن تومرت كانت في شهر رمضان بقرية إيجلي مسقط رأسه، وكما يبدو لنا أن ابن تومرت لم يكن له الكثير من الأنصار في بداية دعوته، إذ لم تتبع القبائل مسلكه، إلا بعد مبايعته

---

[254] ينظر: صفحات مشرقة من التاريخ الإسلامي، علي محمد الصلابي: 406، وكتابه دولة الموحدين: 47.

[255] التاريخ السياسي لدول المغرب الإسلامي لخضر سيفر، الأمل للدراسات، الجزائر عاصمة الثقافة العربية، دط 2007: 1/ 68-69

* سبق ذكرهم في طبقات الموحدين وهم الأصحاب والعشيرة والمقربين.

[256] حركة الموحدين في المغرب، روجي لي تورنو، ترجمة أمين الطيبي، الدار العربية للكتاب، تونس، د.ط، 1982: 32.

بالمهدي من قبل مقربيه، وانضمام بعض القبائل البربرية –للبيعة– في جنوب المغرب الأقصى[257].

ويروي صاحب كتاب " الحلل الموشية" واقعة مبايعة ابن تومرت، قائلا: "ولما كان بالسوس الأقصى...قام فيها خطيبا وقال: " **الحمد لله الفعّال لما يريد، القاضي بما يشاؤه، لا راد لأمره ولا معقب لحكمه، وصلى الله على سيدنا محمد رسول الله المبشر بالإمام المهدي الذي يملأ الأرض قسطا وعدلا، كما ملئت جورا وظلما، يبعثه الله إلى نسخ الباطل بالحق، وأن يلي مكان الجور العدل، والمغرب الأقصى منبته، وزمانه آخر الزمان..."، " سمعت الخليفة عبد المؤمن يقول: لما فرغ الإمام المهدي من كلامه هذا، بادر إليه عشرة رجال من أتباعه الملازمين له، كنت أنا واحدا منهم، فقلنا: يا سيدي، هذه الصفة لا توجد إلا فيك، فأنت هو المهدي، فبايعناه في أثناء ذلك على ما بايع الصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأن يكونوا يدا واحدة على القتال والدفاع، فبايعه أصحابه العشرة تحت شجرة خروب، وتتابع البربر بعد ذلك عليه بالمبايعة على أن**

[257] التاريخ السياسي بالمغرب الإسلامي، لخضر سيفر: 270-271.

يقاتلوا عنه، ويبذلوا أنفسهم دونه، فعرفهم بما فيذلك من الأرزاء والمحن والقتل والفتن، فالتزموا ذلك...ويسمى أصحابه أثر بيعته بالمهدية[258].

ولم يكتف ابن تومرت بهذا الإجراء، بل أكد لهم هذا الاتجاه الفكري في مؤلفاته التي طالب أتباعه بحفظها، والعمل بما جاء بها، ومما جاء به عن قضية المهدي قوله: "إن العدل ارتفع، وإن الجور عمّ وإن الرؤساء الطغاة استولوا على الدنيا...وإن الباطل لا يرفعه إلا المهدي، وإن الحق لا يقوم إلا بالمهدي، وإن المهدي معلوم في العرب والعجم، والبدو والحضر، وإن العلم به ثابت في كل مكان وفي كل أوان وآن..."[259].

والمتأمل لكل الخطوات التي خطاها ابن تومرت نحو هدفه، يجد في أسلوبه براعة وابتكارا لطرق الإيقاع بالخصم وكسب الأنصار.

وقد تأثر ابن تومرت بمذهب المعتزلة وقال ببعض آرائهم، فسمىّ مرتكب الكبيرة فاسقا ولم يصفه بالمؤمن أو الكافر، وهذا قريب من مذهب المعتزلة[260].

كما وافقهم في مذهبهم في صفات عن الله سبحانه وتعالى حيث قال عن صفات الله: "واشتغلوا بتعليم التوحيد فإنه أساس دينكم، حتى تنفوا عن الخالق

---

[258] الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية ل: مؤلف مجهول من القرن الرابع عشر ميلادي، تحقيق أ.س. علوش، ج.ف.ب.هويكنز، الرباط، 1936م: 271-272.

[259] أعز ما يطلب لابن تومرت، تقديم وتحقيق عمار طالبي، نشر المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985: 257.

[260] ينظر: سير أعلام النبلاء، الذهبي: (548/19).

التشبيه، والشريك، والنقائص، والآفاق والحدود، والجهات، ولا تجعلوه سبحانه في مكان ولا في جهة فإنه تعالى موجود قبل الأمكنة والجهات، فمن جعله في جهة ومكان فقد جسّمه، ومن جسّمه فقد جعله مخلوقا، ومن جعله مخلوقا فهو كعابد وثن"[261].

لقد تبنى ابن تومرت مذهب المعتزلة في الأسماء والصفات، حيث نفى كل ما عساه أن يوهم الشبه والمثلية لله سبحانه حتى لو كان ذلك من الأسماء والصفات الثابتة لله في الكتاب والسنة، ولهذا سُمي أصحابه الموحدين [262]، لأنهم في رأيه هم الذين يوحدون الله لنفيهم الصفات عن الله سبحانه وتعالى كما كان يسمي أتباعه المؤمنين ويقول لهم: "ما على وجه الأرض من يؤمن إيمانكم"[263].

كما نهج ابن تومرت نهج الأشاعرة في تأويل بعض صفات الله عز وجل حيث يذكر ابن خلدون أن ابن تومرت هو الذي حمل أهل المغرب على القول بالتأويل، والأخذ بالمذهب الأشعري في كافة العقائد، كما ذكر المراكشي أن ابن تومرت ضمن تصانيفه مذهب الأشاعرة في كثير من المسائل، حيث كان "...جلّ ما يدعو إليه علم الاعتقاد على طريقة الأشاعرة..."[264].

---

[261] ينظر: أعز ما يطلب ، ابن تومرت، تحقيق عمار طالبي: 204.
[262] ينظر صفحات مشرقة من التاريخ الإسلامي، علي محمد الصلابي: 414.
[263] المعجب في تلخيص أخبار المغرب، المراكشي: 276.
[264] نفس المصدر، 276.

وقد وظف ابن تومرت المدارس الكلامية في العقائد لخدمة أهدافه السياسية، ولذلك نجده يهاجم المرابطين الذين ساروا على منهج أهل السنة والجماعة واتهمهم بالتجسيم، والكفر، لأنهم في زعمه يضفون صفات بشرية ومادية على ذات الله عز وجل.

3-مفهوم الإمامة عند ابن تومرت:

تعد الإمامة عند كل المسلمين، الشكل الأسمى لممارسة الحكم، ولا يخالف هذه المسلمة إلا قلة، فالماوردي من أهل السنة عرّف الإمامة بأنها : "حراسة الدين وسياسة الدنيا" [265]، أما ابن خلدون فقال عنها: "هي حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها...وخلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا" [266]، وإلى غير بعيد عن المعاني السابقة، يعرف العلامة الحلي الإمامة بقوله: "رياسة دينية مشتملة على ترغيب الناس في حفظ مصالحهم الدينية والدنيوية"[267].

---

[265] الأحكام السلطانية، الماوردي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983م: 05.

[266] المقدمة، ابن خلدون: 338.

[267] الحلي نقلا عن: علي حسين الجابري، الفكر السلفي عند الشيعة الأثناعشرية، منشورات عويدات، بيروت، 1977: 177.

ولابن تومرت تعريف حدد فيه نظريته في الإمامة جاء فيه أن: معناها الإتباع والاقتداء، والسمع والطاعة والتسليم وامتثال الأمر، واجتناب النهي، والأخذ بسنة الإمام في القليل والكثير"[268].

وإذا تأملنا هذه الأقوال في حقيقة الإمامة، أدركنا تميز ابن تومرت عن الجميع من خلال إشارته إلى تفرد الإمام بالسلطة، ذلك أن ابن تومرت لم تكن تهمه الدلالة النظرية للإمامة، لأنه لم يكن منتصرا لأي مذهب من المذاهب، وإنما كان يهمه المنحى العملي لها، وهو الالتزام باقتداء الإمام والتسليم له في كل شيء.

وخلاصة القول إنّ الدولة الموحدية في بلاد المغرب شهدت تنظيما محكما في أسسها وقواعدها السياسية، واهتمت اهتماما بالغا من قبل مؤسسيها وقادتها بالجوانب الفكرية والعلمية والعقدية، وبناء على هذه الأسس والركائز الفكرية والمعرفية، ما هي علاقتها مع دول الجوار وبالأخص أوروبا ؟، وما هي سبل التواصل المعرفي بين المغرب الإسلامي وأوروبا؟

---

[268] أعز ما يطلب، ابن تومرت: 236.

الفصل الثالث

" التواصل المعرفي بين دول المتوسط "

1. توطئـــــــة
2. سبل التواصـــل
   أ ـ طرق التجارة
   ب ـ الحــــــروب
   ج ـ الجامعات والمراكز العلمية
3. تجليات التواصـــل
   أ ـ المناظــــرة
   ب ـ الرحلات العلمية
4. ابن عربي ـ أنوذجا ـ
   (مولده ونسبه، علمه، شيوخه، أسفاره)
   ــ أثر ابن عربي في الفكر الأوروبي

التواصل المعرفي بين دول المتوسط هو تبادل المعارف والعلوم، أي الاتصال ببعضها بعضا تحاورا وتعارفا وتلاقحا، ويعدّ التواصل المعرفي بين الأمم من الظواهر الإيجابية المهمة التي كان لها دور فاعل في تطور الفكر الإنساني، وإشاعة الثقافة العالمية، وهو يمثل التأثر والتأثير بين الحضارات.

وعندما ن بحث في مجال التواصل الفكري والأدبي بين أوربا والمغرب الإسلامي، لن نجد مثالا أوضح من الحضارة الإسلامية في الأندلس التي كانت جسرا للتواصل بين الثقافتين العربية والغربية، وهو التواصل المعرفي ذاته الذي كان ركيزة الحضارة الأندلسية، حيث كانت هذه الحضارة بو تقة انصهرت فيها عقليات شتى وثمرات ثقافات متباينة، وكانت مشتركا وسيطا بين أوربا والمغرب الإسلامي.

و من تمّ فالحضارة لا يمكن أن تكون أحادية الجانب، " فإن الحضارة العربية الإسلامية لم تكن استثناء في ذلك بطبيعة الحال، فقد كانت حضارة يمثل الدين الإسلامي قوامها ويصوغ نظامها الأخلاقي والقيمي، وتمثل ذلك في علوم أصول الدين والفقه والحديث فضلا عن الممارسات والعادات والتقاليد...ولم يكن النتاج الثقافي والمادي لهذه الحضارة الراقية مقتصرا على الجوانب الدينية

فحسب، بل إنه شمل الأدب بشتى فروعه واتجاهاته فازدهر الشعر والنثر، وتطور فن الحكاية والقصص، فضلا عن ذلك النتاج الهائل من الأدب الشعبي: سِيرا وحكايات وأشعارا وأزجالا وفكاهات، وتطورت فنون الموسيقى والغناء إلى أبعد مدى"[269].

ومن ثمّ فقد انعكس هذا الميراث الحضاري للمسلمين القائم على أساس من الدين والأخلاق والأدب على الأمم المجاورة، حيث سمحت هذه الحضارة لأتباع الديانات الأخرى بالإسهام في بنائها الحضاري، "إذ أسهم المسيحيون واليهود في شتى جوانب الحضارة العالمية بالمعنى الإنساني والمعنى الجغرافي على حد سواء"[270].

ويبدأ البناء الحضاري بانتقال مراكز الدولة خارج إطارها الجغرافي حتى تمتزج العناصر التي جاء بها الإسلام، عقيدة وشريعة، بالموروث الثقافي للشعوب القديمة التي اعتنقت الإسلام دينا، واتخذت العربية لسانا، ومن خلال حركة الترجمة النشطة والمنظمة، ثم أخيرا بناء الأساس العلمي والفكري لهذه الحضارة، وظهرت العلوم الإسلامية والعربية الخالصة.

---

[269] التأثير العربي في أوروبا العصور الوسطى، ديونيسيون آجيوس، ريتشارد هيتشكوك، ترجمة د. قاسم عبده قاسم، عين الدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط2000/1: 04.

[270] نفس المرجع: 03.

وبناء على ما سبق يمكن القول إنه " كان طبيعيا أن تمتد تأثيرات هذا كله إلى الحضارة المجاورة، أي الحضارة الأوروبية الكاثوليكية التي كانت في حاجة لأن تنفض عن نفسها غبار التخلف في الفترة التي اصطلح المؤرخون على تسميتها ب العصور الوسطى"[271].

و من تمّ فإنه يمكن بيان أثر التواصل الحضاري بين دول المتوسط انطلاقا من التساؤلات الآتية:

أولا: ما هي سبل التواصل الحضاري؟ وما هي تجلياته؟

ثانيا: ما هو أثر الإنتاج الفكري في النهضة الأوروبية وكذا ما هو الدور الذي أدته الترجمة لتفعيل التواصل المعرفي والحضاري؟

1 - سبل التواصل الحضاري:

أ- طرق التجارة: أدت التجارة دورا مهما في التواصل بين الضفتين الغربية والعربية، ويبرز دور هذا الاتصال في بلوغ الأرقام العربية إلى أوروبا، حيث استخدمها في البداية الموثقون الذين سجلوا عقود التجارة في العالم الإسلامي

---

[271] المرجع السابق: 04.

حوال عام 1200م، ثم استخدام مصطلحات تجارية ذات أصول عربية في مختلف اللغات الأوروبية، مثل: البازار، والشيك، والتعريفة والمرور، ودار الصناعة والديوان[272]، بالإضافة إلى نقل التقنيات الزراعية العربية إلى أوروبا الغربية في مناطق متفرقة مثل بلنسية، وصقلية التي كانت تحت الحكم العربي يوما ما. فبرتقال اشبيلية، والموز، والأرز، والحناء والسكر تمثل عددا قليلا من المنتجات التي استمر الغزاة المسيحيون في إنتاجها، كما أنهم سعوا أيضا إلى الحصول على المهارات الفنية المطلوبة لصناعة الزجاج، وإنتاج الفخار المطلي بطبقة زجاجية، وصناعة الورق والحرير من العالم الإسلامي، وقد كانت لمثل هذه البضائع أهمية كبيرة في تجارة البحر المتوسط، كما نقلت عن طريق المحيط الأطلنطي إلى أماكن بعيدة مثل انجلترا، بل إنه عندما تم إنتاج هذه البضائع في بلاد يحكمها المسيحيون، كانت زراعتها أو صناعتها تتم غالبا بأيدي المسلمين أو اليهود، كما أن أصلها في العالم الإسلامي ثابت لا يمكن مناقشته

---

[272] A.S Atiyah Crusade, commerse and culture (Bloomington, Indiana/Oxford, 1962), P.240-1.

وقد لعبت نابولي ومرسيليا دور المركز التجاري منذ زمن بعيد، واستمرت في إرسال السفن والبضائع على الأقل إلى المغرب بل وشرق المتوسط خلال فترة العصور الباكرة.

ومن بين المواد التي كان يتم استيرادها عن طريق جنوب إيطاليا في القرن الحادي عشر الميلادي: العطور والتوابل والأقمشة والذهب.

وكانت مدن الجنوب الإيطالي توفر احتياجات البلاط الحاكم في كل من كابوا، ونابولي فضلا عن المراكز الكنسية في روما ومونت كاسينو، وفي هذه الفترة فقط كانت كميات صغيرة من الأقمشة الشرقية تتسرب عبر شمالي جبال الألب، ولا ينبغي أن ننسى كذلك أن الإمبراطورية البيزنطية كانت مصدرا بديلا للثياب الفاخرة، وأن كل شيء يمكن شراؤه من القسطنطينية[273].

وكانت الفضة سلعة أخرى أمكن للتجار الغربيين تقديمها إلى العالم الإسلامي، إذ ظلت الفضة زمنا طويلا تعتبر علامة من علامات الضعف الاقتصادي؛ وكان العالم الغربي قد تخلى بشكل يكاد يكون تماما عن سك العملات الذهبية، على حين كان الذهب والفضة والمعادن الرئيسية متداولة في

---

[273] التأثير العربي في أوروبا العصور الوسطى، قاسم عبده قاسم: 18.

العالم الإسلامي، مع العلم أن البلاد الإسلامية كانت تعاني نقصا في الفضة في القرن الثاني عشر.

وقد أدت واردات الفضة من الغرب إلى العالم الإسلامي مع فتح مناجم جديدة في خراسان، إلى عودة سك الفضة في شمال إفريقيا خلال القرن الثاني عشر الميلادي.

ومن المؤكد أن التأثير الفكري للاتصال التجاري مع العالم الإسلامي أصعب من حيث تقديره، ولكن من الضروري أن نشير إليه من خلال بعض التقارير التي صدرت من المبشرين وتقارير التجار أيضا، ويبرز منهم "رامون لول المايوركي Ramon Lull of Mayorca" من بين هؤلاء المبشرين الذين حاولوا إدخال المسلمين في المسيحية، وربما كانت معالجة رامون لول المعتدلة عموما للإسلام واليهودية انعكاسا لثقافة تجارية وعليه فإن الاتصال على الحدود كان فاتحا ومستمرا، كما أن العلاقات والصداقات تكونت متخطية التقسيمات الدينية بين المسيحيين والمسلمين واليهود[274].

ب- الحروب: الحروب ظاهرة اجتماعية تدل على وجود معضلة بين الفريقين المتخاصمين، يضطرهم الخلاف عليها وفشلهم في حلها سِلما ، لأن يحتكموا إلى

---

[274] ينظر: التأثير العربي في أوروبا العصور الوسطى، قاسم عبده قاسم: 16.

النار والحديد، إلى أن يتم الاتفاق أو يخضع أحدهما للآخر، فهي إذ ا وسيلة لإيجاد استقرار منشود أو استرداد حق مغصوب أو تحقيق مبدأ جديد.

والحروب على هذا الأساس ضربان: حروب داخلية وأخرى خارجية، أما الأولى منها، فتقع بين فريقين في الدولة الواحدة، وأما الثانية فتضطرم نارها بين دولتين، أو بين مجموعتين من الدول، فيشترك فيها عندئذ أقطار وقوميات بل وقارات أحيانا، وكثيرا ما قامت مثل هذه الحروب خلال العصور التاريخية المتعاقبة كحروب الميدين واليونان وحروب الإسكندر والفرس، وحروب رومية وقرطاجنة، ثم حرب المسلمين مع الروم والفرس، وسواهم، حتى كانت الحروب الصليبية بين العرب والإفرنج، أو بين الشرق والغرب بل بين النصرانية والإسلام؛ إلى ما هنالك من حروب عالمية كبرى، مازلنا نعاني بعض مساوئها ونجني كثيرا من فوائدها.

ومن سبل التواصل الحضاري بين العرب وأوروبا، الحروب الصليبية التي خلفت آثارا عميقة بينهم كما أقامت علاقات اجتماعية وثقافية، كانت عاملا مهما في تطور الشعبين بعد ذلك سلبا وإيجابا.

وقد عُرفت تلك الحروب "بمداها الزمني، وتعدد الأمم المشتبكة فيها، وبتنوع الأجناس والقوميات واللغات والأديان والمذاهب، بل وفي درجة التطور الفكري والاجتماعي"[275].

وهي عوامل أسهمت في نشوء أوروبا الحديثة بفضل يقظة قوية ونهضة جبارة خرجت بها من ظلمات العصور الوسطى عندهم إلى أنوار العهد الحديث.

ومع ذلك فقد اختلف المؤرخون في تقدير ذلك الأثر في نهضة أوروبا، فمنهم من رأى فيها العامل الأول في ذلك، ونسبوا لها كل فضل فيه.

ومن هؤلاء "هن أ ن راين Hen-an Rhyn" و"هانز بروتز Henz Prutz" الألمانيان، وبوبون الفرنسي[276].

ومنهم آخرون أنكروا عليها، أن يكون لها ذلك الأثر البعيد؛ فوجدوا في نظرية أولئك ومن تبعهم مبالغات لا مبرر لها، وعلى رأسهم "باركر Berker" والأب "هنري لامنس Henry Lamenss"[277].

ومبعث ذلك الاختلاف هو موقف كل من هؤلاء وأولئك من الثقافة العربية، والميل إلى تقديرها حق قدرها، أو الحط من شأنها، فبينما يقول بوبون:

---

[275] العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين العرب والافرنج خلال الحروب الصليبية، زكي النقاش، دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر، 1946م، 1365هـ، د.ط: 134.

[276] المرجع السابق: 134.

[277] المرجع نفسه: 134.

"كان الشرق آنذاك يتمتع بفضل العرب بحضارة زاهرة في حين كان الغرب غارقا في بحر من الجهالة" [278]، نجده يعترف بحالة الغرب المزرية من الناحية الفكرية والثقافية، أما باركر فنواه يرفع سقف التحدي متسائلا: "من ذا الذي يقول إن أوروبا الغربية كانت خاوية، تفتقر إلى كل شيء؟ " [279]، أما "هن أ ن راين Hen–an Rhyn" فيقول: "...وأما في عالم الثقافة الواسع، فقد ظهر كبار المفكرين في الفلسفة بعد الحروب الصليبية وما يتبعها بسبب الاتصال بالعرب؛ وحتى التصوف تكوَّن بلون العلم" [280]؛ أي أن هذه الحروب بين الغرب والعرب قد أنتجت جسرا للتواصل المعرفي من خلال ظهور عدد لا بأس به من المفكرين والفلاسفة والمتصوفة.

غير أن باركر يناقض نفسه عندما يقابل بين أثر الثقافة العربية عن طريق الأندلس وصقلية في نهضة أوروبا، وبين ما تغذت به من هذه الثقافة نفسها عن طريق سورية ومصر خلال الحروب الصليبية[281].

ومما سبق يمكن القول إن تأثير الحروب الصليبية في نهضة أوروبا الغربية، و إن لم يأت بصورة مباشرة، بحيث يكون قد أخرج فئة خاصة من

---

[278] تراث الإسلام، ايرنست باركر، عربه علي أحمد عيسى، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1936: 102.
[279] المرجع السابق: 100.
[280] العلاقات الاجتماعية والثقافية، زكي النقاش: 135.
[281] ينظر،المرجع نفسه: 135.

العلماء عملت على إيقاظ أوروبا وإنهاضها، كما كانت الحال مع صقلية والأندلس، إلا أنه كان أثرا لا يستهان به؛ إذ خلق مجتمعا بالذات، حمّله قابليات عديدة من نفسية وفكرية وروحية، ساعدت على التطور الجديد.

وهذا ما يقّر به باركر نفسه، حيث يقول: "وإذا لم تكن الحروب الصليبية فقد صادفت حظا من التقدم، فهي على كل حال، قد زعزعت التفريق بين الكتاب المقدس، وغير المقدس وبين الدنيوي والديني، وبين الفاني والروحي...وأدت أيضا إلى تحرير غير رجال الدين وإطلاقهم من قيودهم...وعلى كل حال فقد أظهر العلماء استعدادهم للأخذ من فلاسفة العرب... لئن ظهرت الروح العلمية"[282].

والمستنتج من قول باركر، أن الحروب الصليبية لم يقتصر أثرها على خلق نوع جديد من الاتحاد الداخلي، وتأثير جديد في المجالات الفكرية والعلمية وحتى في مرافق الحياة الداخلية، ولكن أوروبا قد كسبت نظرة جديدة واسعة إلى العالم، هذه النهضة التي صاحبها نهوض حركة الارتياد والانصراف للاستزادة من العلم والمعرفة المتنوعة، وخاصة الجغرافية.

---

[282] تراث الإسلام، باركر: 132-133.

وهكذا نرى أن العرب قد أسهموا أثناء الحروب الصليبية بقسط غير قليل عن طريق صقلية والأندلس في رفع مستوى أوروبا، ودفعها إلى يقظتها ونهضتها، وهنا يمكن القول : " إن الغرب قد تتلمذ على الشرق مدة مائتي سنة خلال الحروب الصليبية، كما تتلمذ بعض أبنائه على أساطين العلم والفلسفة في جامعات الأندلس ومدارس صقلية"[283].

وللإشارة فقد كانت هناك حروب أخرى، عرفت بحروب الاسترداد التي قام بها الأوروبيون على حساب المسلمين في اسبانيا ، في طليطلة سنة 1075م، وسرقسطة سنة 1118م[284]، كان من نتائج هذه الحروب الاستيلاء على المخطوطات العربية في مختلف العلوم، ففي الوقت الذي اشتدت فيه الحروب الصليبية ظهرت نهضة ثقافية مهمة في القرن الثاني عشر، أُطلق عليها مفهوم النهضة، وشملت كل مظاهر الحياة خاصة في الغرب الأوروبي، ويشهد الشرق الأوروبي (دولة بيزنطة) في المقابل تراجعا في كثير من النواحي وبدأت الآداب في الانتعاش شيئا فشيئا ، باللغة المحلية والفرنسية والإيطالية والإسبانية، كما شهد هذا القرن تطورا ملموسا في ميدان العمران خاصة في بناء الكنائس على الطراز الروماني القديم.

---

[283] المرجع السابق: 142-143.
[284] محاضرات في تاريخ أوروبا القرون الوسطى، طاعة سعد، دار قرطبة، الجزائر، ط1، 2012: 160.

ج- الجامعات والمراكز العلمية:

ولكن إذا كان هذا هو أثر الدراسات العربية في النشاط العلمي بالجامعات الأوروبية في العصور الوسطى، فهل تأثرت هذه الجامعات في نشأتها ونظمها بالجامعات والمدارس الإسلامية؟ وإلى أي مدى كان هذا التأثير؟

الواقع أن العالم الإسلامي عرف الجامعات والحياة الجامعية والنظم المرتبطة بها قبل الغرب الأوروبي بمئات السنين، ومن أمثلة الجامعات الإسلامية الشهيرة: الجامعة الأزهرية التي أسست في القرن العاشر الميلادي، والمدرسة النظامية التي أسسها في بغداد نظام الملك وزير السلطان السلجوقي ألب أرسلان في القرن الحادي عشر، وغير ذلك من الجامعات العديدة التي انتشرت في العالم الإسلامي شرقه وغربه[285].

هذا من جهة ومن جهة أخرى يمكن أخذ صورة واضحة للتنظيم الجامعي في البلاد الإسلامية، تبدو فيما ذكره المؤرخون عن المدرسة المستنصرية * التي أسست في بغداد سنة 1234م، والتي امتازت بفخامة مبانيها واتساع أروقتها وغنى مكتباتها بالمؤلفات التي تناولت مختلف ضروب المعرفة، وقد رُتبت الكتب في تلك المكتبة بحيث يسهل الرجوع إليها لقراءتها أو نسخها؛ ولم تبخل

---

[285] ينظر: حضارة ونظم أوروبا، سعيد عبد الفتاح عاشور، دار النهضة العربية للطباعة، بيروت، د س، د ط: 307.

* أسس هذه المدرسة الخليفة المستنصر بالله أبو جعفر المنصور المتوفى سنة 460هـ.

إدارة المكتبة على الطلبة بما احتاجوا إليه من أوراق وأقلام ومسارج للإضاءة، كما زودت المكتبة بصهاريج خاصة لتبريد مياه الشرب، وساعة مائية عند مدخل البهو الكبير.

كذلك شهدت هذه المدرسة نوعا من الحياة الجامعية لم تعرفها الجامعات الأوروبية إلا في العصور الحديثة، فكان للأساتذة والطلبة مرتبات شهرية ثابتة، وللمدرسة مطبخ يمدهم بجرايات * يومية من الخبز واللحم وغيرها من ألوان الطعام، وملحق بالمدرسة، وحمام للطلاب، ومشفى أو بيمارستان له طبيب خاص يحضر كل صباح ليطمئن على الطلبة، ويصف للمرضى ما يلزمهم من دواء يُعدُّ خصيصا لذلك المشفى، وهكذا يبدو أن الجامعات العربية الإسلامية عرفت منذ أمد بعيد قسطا من نظم المدن الجامعية التي لم تعرفها أوروبا إلا بعد عصور طويلة[286].

وبمقارنة النظم التي اتبعت في الجامعات الإسلامية في العصور الوسطى ودورها المعرفي بنظم الجامعات الأوروبية التي نشأت بعدها، نجد أوجه شبه واضحة لا يمكن أن تكون كلها وليدة المصادفة، فالمواد التي كانت تدرس في الجامعات الإسلامية منذ القرنين العاشر والحادي عشر، تشبه تلك التي أصبحت

---

* وجبات غذائية.

[286] ينظر: حضارة ونظم أوروبا، سعيد عبد الفتاح عاشور: 207.

موضع اهتمام الطلبة الغربيين منذ أواخر القرن الثاني عشر، وطبيعة الدراسة المنظمة والعلاقة بين الأستاذ وتلميذه، والهبات المالية، وشتى نواحي النشاط في الحياة الجامعية كانت بدون شك متشابهة إلى حد كبير سواء في بغداد أو في أكسفورد[287].

وعليه فإن الجامعات والمدارس والمراكز العلمية، أدت دورا مهما في نقل المعارف وتبادل الخبرات بين الضفتين، وكانت جسرا للتواصل الحضاري في تلك الحقبة، "...حتى أصبح من الأمور المألوفة في الحياة العلمية في أوروبا أن يرحل الطالب من جامعة إلى أخرى، ومن بلد إلى آخر ليأخذ العلم على مشاهير أساتذة عصره"[288].

فهذه الرحلة العلمية التي يقوم بها الطالب الأوروبي بحثا عن الأساتذة المشاهير طلبا للعلم والمعرفة، شهدها العالم الإسلامي من تنقل الطلبة من بلد إلى آخر سعيا وراء أستاذ مشهور أو فقيه ذائع الصيت، كما ورد في القول : " فإن المريد الصادق هو من إذا سمع من شيخه كلاما، عمل به على وجه الجزم واليقين"[289]، كما أخذ السخاوي العلم عن أكثر من أربعمائة نفس[290].

---

[287] ينظر:تراث الإسلام، جيوم، عربه توفيق الطويل، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1936: 323/233 .

[288] حضارة ونظم أوروبا، سعيد عبد الفتاح عاشور: 308.

[289] لواقح الأنوار المقدسية في مناقب العلماء والصوفية (الطبقات الكبرى)، الإمام أبي المواهب عبد الوهاب الشعراني، تح: أحمد عبد الرحيم السايح و توفيق علي وهبة ، مكتبة الثقافة الدينية – القاهرة، طبعة 2005، : 13/01.

وهكذا يبدو لنا من الأمثلة السابقة فضل العرب المسلمين في استحداث كثير من التنظيمات والتقاليد التي عرفتها الجامعات الأوروبية فيما بعد، ولا يزال بعضها معمولا به حتى اليوم، وإن التشابه الشديد بين نظم الجامعات الأوروبية وشقيقاتها العربية التي سبقتها زمنيا في العصور الوسطى ليؤيد الظن بأن الأولى أخذت عن الثانية، ويعترف جيوم بأن الصلات بين الجامعات العربية والأوروبية في العصور الوسطى أوثق مما يظن، ولكنه يضيف قائلا: "إن الجامعات الأوروبية تأسست على نمط الجامعات الإسلامية تنقصه الأدلة والبراهين القاطعة"[291].

ومع ذلك فإن هذا لا يحول دون الاعتقاد بأن الجامعات الأوروبية تأثرت _ بصورة أو بأخرى_ بنظم الجامعات الإسلامية، فإذا كان الطلبة الغربيون تدفقوا على الأندلس في القرن الثاني عشر والثالث عشر لنقل علوم العرب، وإذا كانت طبيعة المحاكاة دفعت الإنجليز الذين شاهدوا استخدام العرب للبارود في اسبانيا إلى نقل الاختراع إلى بلادهم، فما المانع الذي حال دون الأخذ بنظم الجامعات الإسلامية، وقد شاهد منها الأوروبيون في الأندلس نماذج زاهرة، هذا فضلا عن الأوروبيين الذين قصدوا بلاد المشرق طلبا للعلم.

---

[290] النور السافر عن أخبار القرن العاشر، عبد القادر بن عبد الله العيد روس، تح: أحمد حالو وآخرون، دار صابر، ط.1، 2001 : 1/16-17.
[291] تراث الإسلام، جيوم: 238.

2 - تجليات التواصل الحضاري:

أ/ المناظرات:

تعد المناظرة من الفنون النثرية التي تنأى عن التقليد، وهي فن قائم بذاته، يتميز بتنوع مواضيعه ومجالاته، يُرهن تطوره بكفاءة متناظريه لا ببراعة السابقين، والمناظرة من حيث كونها ثمرة من ثمار الحضارة العربية الإسلامية، ظلت تنتظر من يستجلي حقيقتها ويكشف جوهرها.

أ-تعريف المناظرة:

المناظرة لغة على وزن مفاعلة من نظر، والنظر حسي ومعنوي، فمن الحسي: ناظر العين والنقطة السوداء الصافية التي في وسط العين وبها يرى الناظر ما يرى، والنظر: حس العين نظره ينظره نظرا، ونظر إليه، والنظر: تأمل الشيء بالعين[292].

---

[292] تهذيب اللغة، أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري، تح. عبد السلام سرحان، مادة (نظر)

وتناظرا: تقابلا، والتناظر التراوض في الأمر والنظير، المناظِرُ: المثلُ [293]، ويُقال ناظرتُ فلانا بفلان أي جعلته نظيرا له، ويُقال ناظرت فلانا أي صرتُ له في المخاطبة[294]، والتناظر "التراوض في الأمر، ونظيرك الذي يراوضك"[295].

أما المناظرة اصطلاحا: فهي فن نثري تقوم على عقد مجلس يحضره المتناظران لمناقشة موضوع ما بالحجة والدليل، والغرض منها هو إثبات أو نفي قضية ما باستخدام الحجج والبراهين، وبالاستشهاد بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية إن كان موضوعها دينيا عقائديا أو كلاميا، وبالأمثلة والوقائع والأحداث إن كانت تعالج موضوعا سياسيا أو تاريخيا أو غير ذلك، وقد قال أبو عمرو بن العلاء: "لم أزل أتلطف حتى التقى الخليل وابن المقفع، فرأيت أعجب اثنين يخبر كل واحد منهما بما في ضمير صاحبه، وكأنه قد اطلع على ما في نفسه، فتناظرا مليا في فنون ثم افترقا، فسألت الخليل عن ابن المقفع فقال: "ما رأيت مثله إلا أن لسانه أكبر من معرفته"، وسألت ابن المقفع عنه فقال: "لم أر مثله إلا أن معرفته أكبر من لسانه"[296].

---

[293] القاموس المحيط، الفيروز آبادي: مادة (نظر)
[294] ينظر الصحاح: تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري: مادة (نظر)
[295] لسان العرب، ابن منظور(نظر)
[296] المناظرات اللغوية والأدبية في الحضارة العربية الإسلامية، رحيم جبر أحمد الحسناوي، دار أسامة، عمان، الأردن، ط1، 1999: 46.

فقد وقعت المناظرة بين متناظرين متميزين مكانة ومتوادين سلوكا، وليس بين متعاديين ومتنافرين، بخلاف مناظرات أخرى يتحول النقاش فيها إلى جدال يسوده الغضب والصخب، الأمر الذي استلزم وضع ضوابط تحكم مجريات المناظرة وتؤطرها إيجابيا.

ب-أركان المناظرة:

للمناظرة أركان ثلاثة هي:

***الموضوع:** فلا بد للمناظرة من موضوع يتناظر فيه طرفاها، وليس من المناظرة في شيء أن يتكلم أحد طرفيها في موضوع، ويتكلم طرفها الآخر في موضوع لا علاقة له بالأول، فلا بد من وحدة الموضوع الذي يتفق عليه طرفاها[297].

وموضوع المناظرة هو الذي يحكم بطولها أو قصرها وكذلك مقدرة طرفيها في اتصال الحجج أو انقطاع أحدهما.

***طرفا المناظرة:** هما شخصان يجتمعان من أجل المناظرة، لكل منهما رأي أو مذهب أو يمثلان فئتين، جمعهما خلاف، أو عالمان أو أديبان جمعهما سبيل العلم

---

[297] المرجع السابق: 54.

والأدب أو دعوة من حاكم أو وزير، فتناظرا *. وللإشارة هنا فإن تكافؤ طرفي المناظرة أمر مهم في الوصول بها إلى غاياتها في إظهار الحقيقة، وهذا من طبع مناظرات أبي هذيل العلاف والنظام، فلا يكاد يُعرف القاطع منهما، والمنقطع"[298].

***المجلس والجمهور:** وللمناظرة ركن آخر هو المجلس الذي يعقد ويحضره الجمهور، وقد يُعقد المجلس خصيصا لمناظرة معلومة بين عالِمين أو أديبين معروفين، ويحضر الجمهور وهو يعلم طرفيها والموضوع [299]، وقد تقع المناظرة فجأة في أثناء انعقاد حلقات العلم أو مجالس العلماء، والمجلس قد يعقد في المسجد أو حضرة رئيس أو وزير أو في بيت عالم أو أديب أو حتى في سوق الوراقين[300].

ج–أقسام المناظرة:

المناظرة نوعان بارزان هما: المناظرة الواقعية والمتخيلة، فما هي المناظرة الواقعية، ثم ما هي المتخيلة؟

---

* كما حصل بين الإمام علي "كرم الله وجهه" والخوارج على سبيل المثال.

- أي كما وقع في مجالس الخلفاء الأمويين والعباسيين أو مجالس الوزراء في ظل الدولة العباسية، كمناظرة سيبويه والكسائي في حضرة البرامكة.

[298] المرجع السابق: 59.

[299] ينظر: المرجع نفسه: 61.

[300] ينظر: خطط المقريزي

ج-1/المناظرة الواقعية: هي مناظرة جرت على أرض الواقع بين شخصيتين معلومتين، مع اختيار موضوع متفق عليه، في مجلس معلوم أمام جمهور يحضر المناظرة ويترصد مجرياتها وتفاصيلها؛ أي هي المناظرة التي تتوفر فيها جميع أركان المناظرة وشروطها وآدابها، ومن أهم مميزاتها: "التزام طرفيها بأن الغاية منها كشف الحقيقة، والوصول إليها من طريق أي منهما" [301]، وهذا ليس بالأمر الهين، لأن المُناظرَ يحتاج استعداد ا ومرانا وتجارب متوالية، لذا وضعت أحكام وضوابط توجهه إلى السبيل الصحيح، مع التزام آداب المناظرة، فقد كان كبار النظار يحرصون على ذلك، فالإمام الشافعي يقول: "ما ناظرت أحدا إلا على النصيحة"[302].

و من تمّ فإن المناظرة هي باب من أبواب العلم والمعرفة، تحتاج إلى آداب وأخلاق تُسلكها سبلها الراقية وتسمو بها إلى غاياتها الحضارية، يقول التوحيدي: "وطلب العلم مرة بدرس كتاب، ومرة بمذاكرة نظير، ومرة بخدمة عالم"[303].

---

[301] المناظرات اللغوية والأدبية في الحضارة العربية الإسلامية، رحيم جبر أحمد الحسناوي: 77.

[302] المرجع نفسه: 78.

[303] نفسه: 79.

ج-2/المناظرة الخيالية (المتخيلة): ومن المناظرات ما كان نتاج خيال الأديب وإبداعه، وثمار نشاطه العقلي، لذلك يُطلق عليها المناظرة المتخيلة، ولكن ما هي خصائص هذا النوع من المناظرة؟ وما هي مواضيعها؟

المناظرة المتخيلة هي "التي لم يعقد لها مجلس يحضره جمهور، وتتم لها شروط المناظرة الحقيقية وأركانها، وإنما يسعى الأديب إلى اتخاذ الشروط فيما يكتب من تصور قضية أو موضوع، وطرفين من الناس يختلفان في الموضوع الذي يعالجه، ولكل حججه التي يدلي بها، فيفندها الطرف الآخر، والحكم في تلك المناظرة لجمهور القراء الذين يؤثر فيهم أسلوب الأديب ومقدرته"[304].

فالمناظرة الخيالية إذا، هي محاولة الأديب رسم صورة عن المناظرة الحقيقية لكن في قالب خيالي تصوري ، يعالج فيها موضوعا، وتستخدم في ذلك الحجج والبراهين، ولكن ما الهدف منها؟

الهدف منها هو "تبليغ رأي أو فكرة، وخلق القناعة عند القراء بذلك الرأي وتلك الفكرة لما في أسلوب التناظر من تشويق يحفز القارئ على مواصلتها، ويشده لإتمام ما بدأ"[305]، أما من حيث المواضيع فقد تطرقت المناظرة المتخيلة إلى جل القضايا التي شغلت الناس في الأدب والسياسة والاجتماع وعالم

---

[304] المرجع السابق: 199.
[305] المرجع السابق: 199.

الحيوان، وربما كان الجاحظ رائدا في استعمال أسلوب هذا النوع من المناظرة، من خلال مناظرة "صاحب الديك وصاحب الكلب التي أودعها الجاحظ كتاب الحيوان، ورسالة تداعي الحيوانات على الإنسان لإخوان الصفا وهي مناظرات متخيلة طرفها الحيوان والإنسان"[306].

وفي الأخير نستخلص أن كلاّ من المناظرة الحقيقية والمتخيلة أسهمت في خدمة اللغة وتطورها، وأن مجالسها كانت رحابا لبحث علومها وتقدمها، كما ساهمت في إثراء الفكر العربي الإسلامي من خلال تقاطع الاتجاهات المختلفة وما نتج عنه من فكر حضاري راق، مع العلم أن هذا النضج الفكري ولّد القدرة على الخلق والإبداع والتواصل بعيدا عن الجمود والتقليد.

ومن المناظرات التي أوجدت جوا من التواصل بين المسلمين والمسيحيين نذكر: أن "عالما أندلسيا يدعى محمداً الأنصاري [*]، كان ينتقل بين مجالس المناظرات في المدن الإسبانية يحاور القس والرهبان والوعاظ والنصارى، ثم يجمع مناظراته في باب مؤلفه "رسالة السائل والمجيب وروضة نزهة الأديب"، وقد أشار الأنصاري في مستهل ذلك الباب إلى دواعي تأليفه وظروف

---

[306] المرجع نفسه: 199.

[*] محمد الأنصاري: نزيل فاس أواسط القرن التاسع الهجري، كما ناظر النصارى أيضا محمد القيسي (ت.ق 14م)، وله كتاب بعنوان "مفتاح الدين والمجادلة بين النصارى والمسلمين من قول الأنبياء والمرسلين والعلماء الذين قرأوا الأنجيل ، نقلا عن: قواعد المناظرة لمحمد الكتاني من جامعة تطوان، مجلة التاريخ العربي، موقع www.attarikh-aladabi.ma/hTMll adad15 Partie9 عن كتاب المناظرة في الأندلس، آمنة بن منصور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2012: 74.

المناظرات وتلبيس النصارى، ومكابراتهم وخلطهم المعقول بالمنقول، واعتمادهم على بيان نصوصهم المحرفة التي ركز على دحضها[307].

كما ظهرت بعض المناظرات الموريسكية، ومن أشهرها:

- **مناظرة أحمد بن قاسم الحجري الملقب بأفوقاي*:**

ألف أفوقاي كتابا بعنوان " ناصر الدين على القوم الكافرين" *، وضمنه مجادلات لليهود والنصارى ورحلاته إلى فرنسا وهولندا وغيرها، ومن مناظراته مع اليهود هذه المناظرة التي مهَّد لها بذكر بعض الحقائق حولهم وعنهم، يقول: "اعلم أن اليهود الذين هم بتلك البلاد كان أصلهم في قديم الزمان وفي زمننا ببلاد الأندلس، وأكثرهم ببرتغال، وكانوا في الظاهر نصارى وفي خفاء منهم يهود...وجميع اليهود فيهم من الكبر الخفي ما لا كنت أظن فيهم حتى رأيتهم بالبلاد المذكورة" [308]، ثم يبين أفوقاي الطرق التي التمسها للرد على اليهود الذين لا يقنعهم إلا كلام مأخوذ من كتبهم، كما هو شأن النصارى، ومن المسائل التي دارت حولها المناظرة مسألة محو الله تعالى ما يشاء ويثبت، وعنده أم الكتاب، قالوا ليس ذلك عندنا، قلت لهم عندكم في التوراة مسألة مثل ما قال

---

[307] ملتقى الدراسات الأندلسية، عبد الحميد الهرامة، تيارات الفكر في المغرب والأندلس، جامعة عبد الملك السعدي، تطوان، 1993: 76.

* بلغ المؤلف المغرب حوالي سنة 1007م أواخر عهد المنصور الذهبي (ينظر: المناظرة في الأندلس، بن منصور آمنة: 75).

* هذا الكتاب هو اختصار لكتابه السابق "رحلة الشهاب إلى لقاء الأحباب"، كما ألف كتابا آخر لم يصلنا عنوانه: "العز والرفعة والنافع للمجاهدين في سبيل الله بالمدافع" نقل فيه محاورته راهبا نصرانيا بأسلوب المكاتبة (ينظر: المناظرة في الأندلس، آمنة بن منصور: 75).

[308] المصدر السابق: 88.

الله في القرآن إنه يمحو ويثبت، قالوا: في أي موضع في التوراة؟ قلنا: في الباب العشرين من كتاب الثاني للسلاطين"[309].

وذكر له قصة السلطان الذي مرِض مرَض الموت، وحزن لذلك حزنا شديدا، ثم زاده الله خمس عشرة سنة، فمحا الحكم الأول وهو الموت وثبت الثاني وهو تمديد الأجل [310]، ومن مناظراته معهم ما جرى بينه وبين اليهودي الذي ادعى أن عمر الإسلام قصير إذ قال: "إن كل من يأتي بدعوة باطلة لم تبلغ ولا تدوم ألف سنة، قلت له هذا قول حسن لأن دعوة نبينا صلى الله عليه وسلم جازت الألف سنة بأكثر من عشرين سنة، فلما سمع ذلك نزل عليه الخزي والذل والتغيير، وخاب ظنه فيما كان يرجوه"[311].

إن أفوقاي في مناظراته مع اليهود والنصارى ينتهج منهجية معينة، تقوم على الرد على هؤلاء انطلاقا مما ورد في كتبهم، ثم نقضها وفقا لمعطيات تاريخية وعقلية يعرفونها تمام المعرفة.

ب/ الرحلات العلمية:

---

[309] المصدر نفسه: 88-90.

[310] المناظرة في الأندلس –الأشكال والمضامين- أمنة بن منصور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2012: 76.

[311] ملتقى الدراسات الأندلسية، عبد الحميد الهرامة: 104-105.

لقد أسهمت الرحلات العلمية بشكل كبير في إثراء الحركة الفكرية والأدبية، وأدت الدور المهم في كونها وسيلة من وسائل التواصل بين المغرب الإسلامي بما فيه الأندلس مع دول أوروبا، وذلك بفضل التنقل والترحال من بلد إلى آخر بغية الحصول على مصادر العلم، والجلوس بين أيدي كبار العلماء والفقهاء والنهل من منابعهم والأخذ من معارفهم وعلومهم.

ويمكن أن أشير هنا إلى أمرين أساسيين هما:

أولا: دور الرحلات العلمية التي قام بها المغاربة والأندلسيون إلى بلاد المشرق وتشكيل قاعدة علمية في بلادهم بعد العودة من الرحلة.

ثانيا: توضيح أشكال ومضامين بعض الرحلات العلمية التي قام بها الأوروبيون إلى الأندلس، ودورها في خلق جسر للتواصل.

ولكن قبل تفصيل الحديث في هذين العنصرين، أرى أنه من النافع الإجابة عن التساؤلات الآتية:

- ما هو مفهوم الرحلة؟
- ما هي دوافع الرحلة؟
- كيف ساهمت الرحلة العلمية في خلق جو التواصل بين دول المتوسط؟

1 - مفهوم الرحلة:

أ-لغة: لقد حظيت مادة "رَحل" بشرح وافٍ في العديد من المعاجم العربية، فقد ورد في معجم لسان العرب: "الترحيل والرحال بمعنى الإشخاص والإزعاج، يُقال رحل الرجل إذا سارَ، وأرحلته أنا، ورجلٌ رحولٌ وقوم رحَّل: أي يترحلون كثيرا، ورجلٌ رحّال: عالم بذلك مجيدٌ له..." [312]، فالرحلة هنا بمعنى السير.

أما في القاموس المحيط فقد جاء ذكر "الرَّحْلِ بمعنى مركبٌ للبعير، والراحول: ج أرْحل ورِحال ما تستصحبه من الأثاث، والرحَّال العالم به المجيد، وارتحل البعير سار ومضى، والرُحيل: قوي على السير" [313].

فقد ارتبطت الكلمة هنا بالبعير وسيره وقوته، فمشتقات مادة "رحل" كثيرة ومتعددة وتدل كلها على الحركة، لأن الرحلة في الحقيقة ما هي إلا "حركة وانتقال" [314] تبعث في الإنسان الحيوية والنشاط، وتعود عليه بمنافع عدة في مختلف مجالات حياته؛ وهي "من دلائل الحياة، والسكون من دلائل الموت، وإن تتحرك حركة ضعيفة يؤمل أن تقوى أحب من تسكن" [315]؛ لأن في الحركة نبضا

---

312 لسان العرب، ابن منظور، مادة (رحل).
313 القاموس المحيط، الفيروز آبادي: مادة (رحل).
314 الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع، ناصر عبد الرزاق الموافي، مكتبة الوفاء للطباعة، القاهرة، ط1، 1995: 23.
315 معجم البلدان، ياقوت الحموي شهاب الدين، دار صابر بيروت، ج2، د ط، 1977: 420.

حيوي يحقق الانتصار، على عكس السكون الذي يبعث في صاحبه الجمود والخمول[316].

أما في القرآن الكريم فقد ورد لفظ "رحلة" مرة واحدة في سورة قريش، في قوله عزّ وجلّ: ﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ (1) إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (2) فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ (3) الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآَمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ (4)﴾[317]، غير أن الألفاظ الدالة على الحركة والانتقال كثيرة ومتعددة نذكر منها: الهجرة، الظعن، السفر، الإسراء، الحج، السير...[318]

كما ورد ذكر معناها في السنة النبوية الشريفة، حيث نجد أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يشجع أصحابه على الرحلة ويحثهم عليها بغية طلب العلم ونشر الإسلام، ومن أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم التي يحث فيها على الرحلة قصد طلب العلم نذكر: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "...من سلك طريقا يلتمس فيه علماً سهَّل الله له به طريقاً إلى الجنة"[319].

---

[316] الموروث الفكري في أدب الرحلة الجزائري "نماذج من رحلات القرن العشرين"، يسمينة شرابي، إشراف د/ علي لطرش، جامعة أكلي محند أولحاج، البويرة، 2012: 23 (ماجيستير).
[317] سورة قريش، [1-4].
[318] المرجع السابق: 24.
[319] صحيح مسلم بشرح النووي، محي الدين أبي زكريا يحي بن شرف النووي، مكتبة أبو بكر الصديق، القاهرة، ج17، 18، ط1، 2006: 21.

وقد كان غرض الرحلة في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة متمثلا في أمور نفعية متعددة كطلب العلم أو التجارة أو البحث عن سبل آمنة للعيش ومشاهدة آيات الله تعالى في الكون والتدبر فيها.

ب-اصطلاحا: تعددت مفاهيم الرحلة في الاصطلاح إلا أنها تجتمع في معنى واحد، وتصب كلها في قالب واحد، فقد عرّفها الإمام الغزالي "بأنها نوع مخالطة مع زيادة تعب ومشقة"[320]، جاعلا الرحلة عبارة عن احتكاك بالآخر بعد الجهد والتعب الناتجان من الانتقال على الرغم من أنه لم يذكر ذلك، لأنه لابد أن تكون في الرحلة حركة حيوية وانتقال حتى تتوفر المخالطة . أما الرحلة عند بُطرس البستاني فيعرِّفها بأنها "انتقال واحد -أو جماعة- من مكان إلى مكان آخر، لمقاصد مختلفة وأسباب متعددة"[321].

وبعد عرضنا للمفهوم ين اللغوي والاصطلاحي للرحلةـ تبيّن أن المفهومين يشتركان في معنى واحد وهو الحركة، وهذه الحركة يُحقق منها الإنسان فوائد عدة، حيث يشير المسعودي بقوله: "ليس مَن لزمَ جهةَ وطنه وقنعَ بما نمي إليه من الأخبار عن إقليمه كمن قسم عمره على قطع الأقطار، ووزع

[320] إحياء علوم الدين، آبي حامد أحمد بن محمد الغزالي، دار الكتب العلمية، بيروت، ج2، ط1، 1986: 273.
[321] دائرة المعارف، بطرس البستاني، مطبعة المعارف، بيروت، مج 8، د ط، 1884: 564.

أيامه بين تقاذف الأسفار، واستخراج كل رقيق من معدنه، وإنارة كل نفيس من مكمنه"[322].

2 – دوافع الرحلة:

الرحلة نشاط إنساني عرفه الإنسان منذ القديم، متحديا بذلك كل الصعوبات، متحملا مشقة الترحال والتنقل بين الأمصار والأقطار، وذلك بدوافع شتى، منها:

- الدافع العلمي:

تعد الرحلة إحدى السبل التي اتخذها الإنسان بغية طلب العلم والتتلمذ على يد العلماء والفقهاء ومجالستهم والاستفادة منهم، بل إن هناك "من العلوم الإسلامية ما يرتبط بالرحلة ارتباطا عضويا لا انفصام له مثل الجغرافيا، ولذلك كان الجغرافيون المسلمون رحالة"[323]، وهذا كله راجع إلى إدراكهم دور العلم في التقدم والتحرر من عبودية الجهل.

- الدافع الديني:

[322] مروج الذهب ومعادن الجوهر، المسعودي أبو الحسن علي بن الحسين: 03.
[323] أدب الرحلة، حسين نصار، دار نوبار للطباعة مع الشركة المصرية العالمية للنشر، القاهرة، ط1، 1991: 32.

ويعد من العوامل الأساسية والقوية التي تدفع بالرحالة إلى شد رحاله نحو المشرق الإسلامي لأداء مناسك الحج، كما يتمثل ذلك في "زيارة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم، والمزارات الدينية الأخرى، كالمسجد الأقصى أولى القبلتين، وثالث الحرمين وقبور الأنبياء والصحابة والأولياء، في كل من بغداد ودمشق والقاهرة وغيرها، ويعدٌّ هذا العامل من أقوى البواعث على الرحلة فهو مبعث الحنين..."[324].

- الدافع الاقتصادي:

لعل من بين أهداف الرحلة هو السعي في التجارة وطلب الرزق بحكم موقع البلاد العربية الذي يتوسط "قارات العالم القديم، كان مركزا لالتقاء الطرق التجارية بين هذه القارات، كما أن انفصال الماء وتداخله في اليابسة في المنطقة العربية، جعلها تحتل موقعا تجاريا هامّاً"[325].

وبفضل هذا الموقع الاستراتيجي كان الرحالة يقصدها من كل فج، وكذلك كان الرحالة العربي يجول في أقطار العالم القريبة منها والبعيدة، حيث ذكر ذلك

---

[324] أدب الرحلات المغربية والأندلسية، مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرن السابع والثامن الهجريين، دراسة تحليلية مقارنة عواطف محمد، يوسف نواب، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، دط، 1996: 27.

[325] المرجع السابق، 46.

في القرآن الكريم رحلتي الشتاء والصيف لقريش، وهما رحلتان تجاريتان تكون شتاء إلى اليمن، وصيفا إلى الشام.

- **رحلة الحاجة أو الضرورة:**

تعد الضرورة من الدوافع الحتمية التي تدفع الرحالة إلى القيام بهذا النشاط[326]، خاصة إذا تعرض لِعارض يدفعه لهجر وطنه فيغادره بحثا عن الكلأ والماء، وهربا من تعسف الحكام والأمراء، وحتى اليأس من المجتمع، وما قد حل به من حروب وفتن ونزاعات محلية، وظروف اجتماعية قاسية وويلات ونكبات....

ومن الرحالة الذين دفعتهم الضرورة إلى الارتحال (أبو بكربن عربي)، هذا الرحالة الذي عُرف برحلته الضائعة "ترتيب الرحلة" إلا أن كتابه "قانون التأويل" قد صوّر لنا رحلته، ويذكر لنا دوافع رحلته في مواضع متفرقة نذكر قوله: "فدعت الضرورة إلى الرحلة فخرجنا والأعداء يش متون بنا" [327]، "فخرجنا مكرمين أو قل مكرهين"[328]، وإلى غير ذلك من العبارات الدالة على أن الرحلة كانت ضرورة حتمية للنجاة من ويلات الأعداء ومكائدهم.

---

[326] الموروث الفكري في أدب الرحلة الجزائري، يسمينة شرابي: 26.

[327] قانون التأويل، ابن عربي، تحقيق: محمد السليماني، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 1990: 75.

[328] المصدر نفسه: 77.

1 - الرحلات العلمية بين الأندلس والمشرق:

لقد بدأت الأندلس تتصل بالمشرق، وبدأت علوم المشرق وآدابه تُحمل إلى المغرب عن طريق وفد من المشرق إلى الأندلس من العلماء والمفكرين، وعن طريق رحلات طلب العلم يقوم بها عدد من أهالي الأندلس والمغرب إلى مراكز الإشعاع العلمي في مصر والحجاز والشام والعراق، كما تحفل كتب الطبقات والتراجم بأسماء العديد من علماء الأندلس الذين رحلوا إلى المشرق طلبا للعلم ورغبة في الاتصال بعلماء المشرق الإسلامي، "اعتمد الأندلس والمغرب أولا على التراث الإسلامي بالمشرق، وكان هذا الاعتماد عن طريق الداخلين إلى الأندلس في عصر الولاة الذين يمثلون نوعا من الثقافة حيث كانت اللبنة الأولى لبناء صرح الحضارة العربية المغربية، فقد دخل الأندلس مجموعات من الصحابة والتابعين رافقوا عمليات الفتح"[329].

وكان أهل الأندلس أحرص الناس على التزود بالعلم، ويذكر المقري: "أن الجاهل الذي لم يوفقه الله للعلم في الأندلس، كان يجهد نفسه ليتميز بصنعة ويربأ بنفسه أن يُرى عالة على الناس...إذ إنهم كانوا يعدون ذلك غاية القبح..."[330].

---

[329] المعجب في تلخيص أخبار المغرب، عبد الواحد المراكشي: 19-20.

[330] نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، أحمد بن محمد التلمساني المقري، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، القاهرة، ط1، 1949: 1-25.

فقد شعر الناس بالحاجة الماسة إلى التعمق في المسائل العلمية وقضايا التشريع الإسلامي وما يتعلق منها بمعاملة تلك الطوائف من أهل الذمة، هذا بالإضافة إلى ما يتعلق بالدراسات اللغوية والنحوية وعلاقتها بالقرآن الكريم والسنة الشريفة، ورغبة الأندلسيين في تعميق معارفهم في علوم اللسان، وأخيرا طموح الأندلسيين للحاق بركب إخوانهم المشارقة الذين سبقوهم إلى طرق ميادين العلوم والمعارف المختلفة، وهنا بدأ التفكير في الاستعانة بالمشرق وشد كثير منهم الرحلة إليه للقاء علمائه وفقهائه، ويمكن تفريع هذه التأثيرات إلى: تأثيرات حجازية وشامية وعراقية .

أ – التأثيرات الحجازية:

كانت المدينة مركز العلوم الدينية، وقد توّج نضوج هذه العلوم وجود الإمام مالك بن أنس (ت 179هـ) فيها، فأقبل الأندلسيون على اعتناق مذهبه في عهد الأمير هشام، وشاع هذا المذهب بالأندلس بعد أن استهوى الأمير ومَن حوله من الفقهاء تلاميذ مالك دون أن يرى أحدهم الآخر[331].

---

[331] ينظر: حضارة العرب في الأندلس، بروفنسال .أ.ليفي، ترجمة: ذوقان قرقوط، بيروت: 46.

كذلك تبلور التأثير الحجازي بالعلماء الأندلسيين الذين رحلوا إلى الحجاز ودرسوا على الإمام مالك، فنقلوا مذهبه إلى الأندلس وفي مقدمتهم أبو عبد الله زياد بن عبد الرحمن اللخمي الملقب "بشبطون"[332].

وتعلل الروايات أن الشبه الكبير بين طبيعة أهل المغرب والأندلس وطبيعة أهل الحجاز من حيث البساطة، كان من أسباب انتشار المذهب المالكي في مغرب العالم الإسلامي، ولهذا فإن عقلية أهل المغرب والأندلس كانت تغلب عليها نزعة أهل الحديث، وجانبوا نزعة أهل الرأي والقياس (مذهب أبي حنيفة)[333].

ب ــ التأثيرات الشامية:

كانت الأندلس تابعة السيادة لهلاد الشام، ولهذا كان من الطبيعي أن تتأثر بالمظاهر الحضارية الشامية، وهو ما يعرف بالتقليد الشامي الذي ظهر منذ البداية في شبه الجزيرة ، إذ اجتهد الولاة على تطبيعه، وعندما تمكن جند القائد "بلح بن بشير القشيري" من إيجاد ملاذ في الأندلس سنة 125ه، أتاحت هذه المناسبة على نشر هذا التقليد فيها وراء قرطبة نفسها [334]، وأخذ التقليد الشامي

---

[332] تاريخ حضارة المغرب والأندلس في عهدي المرابطين والموحدين، عبد الحميد حسين وأحمد السامرائي، دار شموع للثقافة، ليبيا، ط 1، 2002: 58.

[333] المرجع السابق: 58.

[334] ينظر: حضارة العرب في الأندلس، بروفنسال: 46

يتعمق منذ ارتقاء عبد الرحمن الدّاخل الإمارة بسبب قدم جماعات عربية،وكان النجاح في إقامة دولة أموية يجذبها إلى الجانب الشرقي من البحر المتوسط[335].

كما أن الحقد على العباسيين ألف بين الجماعات العربية وبين النظام الأموي في قرطبة في العصور الوسطى، وبذلك حققت الأندلس ليس وحدتها السياسية فحسب بل وحدتها الدينية أيضا[336].

ج- التأثيرات العراقية:

إن التأثيرات العراقية حدثت في عهد الأمير عبد الرحمن الثاني الذي اتبع طريقة العباسيين دون أن يرى في العداوة التقليدية بين الأسرتين أيّ أثر يمنعه من اقتباس معالم الحضارة العباسية والاقتداء بآثارها، وهكذا أصبح نظام الإدارة في قرطبة صورة منقولة عن نظام الإدارة العباسية[337].

قام العديد من طلاب العلم الأندلسيين بالرحلة إلى العراق للتزود بالعلوم من منابعها، وقد أمضى معظمهم سنوات طويلة تجاوزت العشرين سنة أحيانا، من أجل هذه المهمة من أمثال محمد عبد السلام الخشني، وأنفق الكثيرون القسم

---

[335] المرجع نفسه: 47-48.
[336] المرجع السابق: 48.
[337] تاريخ حضارة المغرب والأندلس في عهدي المرابطين والموحدين، عبد الحميد حسين وأحمد السامرائي: 59

الأكبر من ثرواتهم في شراء الكتب التي أدخلوها إلى الأندلس، إضافة إلى مَن كان يحملُ العلم رواية في الصدور[338].

وعموما فقد كانت بغداد آنذاك مركز الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامي، بما اجتمع فيها من جهابذة العلم والمعرفة، و أيضا مجمعا علميا زاهرا بما اجتمع فيها الأطباء والفلاسفة والأدباء على مختلف مشاربهم وأعراقهم كالعرب والفرس والهنود والسريان وغيرهم...[339]

2 - رحلات الأوروبيين إلى الأندلس:

في الوقت الذي كانت فيه الحضارة تشع في سماء دولة الخلافة الإسلامية، بتأييدٍ وتشجيعٍ من ملوكها وأمرائها وفقهائها وعلمائها، كانت أوروبا تعيش أوضاعا صعبة في العصور الوسطى، خاصة من الناحية العلمية، وذلك بفعل رجال الكنيسة الذين انحصروا في فئة من الحكام الطغاة المتسلطين [340]، حيث سعت الكنيسة إلى الحد من تفكير الناس داخل دائرة ضيقة من الخرافة والطقوس والمراسيم والتعاليم الكَنَسِيّة واللاهوتية، ألزمتهم بحصر نشاطهم

---

[338] المرجع السابق: 59.

[339] الحياة العلمية في عصر ملوك الطوائف في الأندلس، سعد الله البشري: 168.

[340] معابر الحضارة الإسلامية إلى أوروبا، محمد فاروق أحمد الإمام: 29.

الفكري داخل حدود معينة، بعكس م ا كان عليه المسلمون من نهضة فكرية عالية تشمل كل مناحي الحياة الفكرية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية[341].

ولو تتبعنا جذور الاتصال الحضاري والفكري بين المسلمين وغرب أوروبا منذ أواخر القرن العاشر الميلادي، لوجدنا شهادات علماء الغرب واضحة كالشمس تشيد بعلوم المسلمين ومعارفهم وبفضلهم على الغرب.

- نماذج من العلماء الرحالة الأوروبيين إلى الأندلس:

1/ جريردي أورالباك (Grerdi Ouralbac) : كان يقصد الأندلس ويتتلمذ على أساتذتها في إشبيلية وقرطبة، حتى أصبح أوسع علماء عصره في أوروبا ثقافة بالعربية والرياضيات والفلك، ثم تقلّد فيما بعد منصب البابوية، ليعرف الغرب ولأول مرة بعض المصطلحات العربية مثل: الإسطرلاب، وأسماء النجوم ومجاميعها.

2/ فريدريك الثاني) (Friedrik: حاكم صقلية الذي أصبح إمبراطورا لألمانيا عام 1215م، لا يتحدث إلا باللغة العربية ويتشبه بالعرب في لباسهم وعاداتهم، ويتحمس للفلسفة والعلوم العربية، وقد أمر أن تدرس هذه العلوم في قصره في (بالرمو) ، عاصمة ملكه لشغفه بها، وقد أهدى هذا الإمبراطور وابنه (مانفرد)

---

[341] المرجع السابق: 29.

إلى جامعات بولونيا وباريس ترجمات لكتب فلسفية مترجمة عن العربية، وفي عام 1224م أسس الإمبراطور جامعة نابولي، وجعل فيها أكاديمية لإدخال العلوم العربية إلى العالم الغربي، حتى أدى حب هذا الإمبراطور لعلوم العرب ولغتهم إلى طرده من طرف البابا "جريجوري التاسع" من الكنيسة عام 1239م، وقد كانت إحدى التهم التي وُجهت إليه هي ما يبديه من مظاهر الود تجاه الإسلام[342].

لم تفرِّق مدارس العلم وكليات المعرفة بالأندلس بين مسلم أو نصراني أو يهودي، ولا بين عربي أو قوطي أو جرماني، فقد كانت مناهل العلم مشرعة أبوابها لكل ساعٍ لها أو باحث عنها.

فقد اختار مسلمو الأندلس أن يوطّدوا سلطانهم في إسبانيا عن طريق العلم، فانصرفوا نحو العناية بالآداب والعلوم والفنون، مما أتاح لأوروبا موردا عذبا استساعت شرابه فظلت تنهل منه منذ أواخر القرن الحادي عشر الميلادي، حتى النهضة الإيطالية في القرن الخامس عشر، وأصبحت "قرطبة" في أيام الخليفة الأموي (الحكم الثاني) [343] قبلةً للعلم وناشدي المعرفة، فقد استجلت من

---

[342] الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، محمود حمدي زقزوق، مطابع الدوحة الحديثة، د ط، 1983: 20.

[343] الحكم بن عبد الرحمن الناصر الأموي: خليفة أموي أندلسي، ولد بقرطبة عام 914م، وتولى الخلافة عام 961م، غزا الفرنجة ودانوا إليه واستجار بعض ملوكهم به، كان عالما بالدين ملما بالأدب والتاريخ، جمّاعا للكتب، قيل أن مكتبته بلغت أربع مائة مجلد، دامت خلافته خمسة عشر عاما، وتوفي عام 976م.

بغداد والقاهرة ودمشق وغيرها من حواضر الإسلام في المشرق والمغرب عيون التآليف والمصنفات العربية في العلوم القديمة والحديثة، حتى قيل: "إن مكتبة الحكم الثاني كانت تضم عشرات الآلاف من الكتب والمخطوطات في كل علم وفن"[344].

ونسوق هنا نص الرسالة التي حملتها البعثة العلمية الإنكليزية من ملك إنكلترا (جورج الثاني) إلى أمير الأندلس (هشام الثالث)[345]:

"**من جورج الثاني ملك انكلترا والسويد والنرويج** إلى الخليفة ملك المسلمين في مملكة الأندلس صاحب العظمة هشام الجليل المقام...

بعد التعظيم والتوقير، **فقد سمعنا عن الرقيّ العظيم الذي تتمتع بفيضه الضافي معاهد العلم والصناعات في بلادكم العامرة، فأردنا لأبنائنا اقتباس نماذج هذه الفضائل لتكون بداية حسنة في اقتفاء أثركم لنشر أنوار العلم في بلادنا التي يحيط بها الجهل من أركانها الأربعة** .وقد وضعنا ابنة شقيقنا الأميرة دوبانت على رأس البعثة من بنات أشراف الإنكليز، لتتشرف بلثم أهداب العرش والتماس العطف، وتكون مع زميلاتها موضع عناية عظمتكم وفي حماية

---

[344] معابر الحضارة الإسلامية إلى أوروبا، محمد فاروق أحمد الإمام، دار المأمون للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2008: 32.

[345] هشام بن الحكم بن عبد الرحمن الأموي: من خلفاء الدولة الأموية في الأندلس، ولد بقرطبة عام 966م، وبويع له بالخلافة عام 977م، فاستأثر بالملك وزير أبيه محمد بن أبي عامر (الحاجب المنصور) مات عام 1013م (معابر الحضارة الإسلامية إلى أوروبا، محمد فاروق أحمد الإمام، دار المأمون للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2008م: 32).

الحاشية الكريمة، والحدب من قبل اللواتي سوف يقمن على تعليمهن، وقد أرفقت الأميرة الصغيرة بهدية متواضعة لمقامكم الجليل، أرجو التكرم بقبولها، مع التعظيم والحب الخالص.."

من خادمكم المطيع

جورج الثاني ملك إنكلترا والسويد والنرويج

ولقد ردَّ الخليفة هشام الثالث على رسالة الملك جورج الثاني بهذه الرسالة الرقيقة البليغة:

" بسم الله الحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبيه سيد المرسلين، وبعد:

إلى ملك انجلترا و ايكوسيا واسكندنافيا الأجلّ..

اطلعت على التماسكم، فوافقت على طلبكم بعد استشارة من يعنيهم الأمر من أرباب الشأن، وعليه نعلمكم أنه سوف ينفق على هذه البعثة من بيت مال المسلمين، دلالة على مودتنا لشخصكم الملكي. أمّا هديتكم فقد تلقيتها بسرور زائد، و بالمقابل أبعث إليكم بغالي الطنافس الأندلسية، وهو من صنع أبنائنا، هدية لحضرتكم، وفيها المغزى الكافي للتدليل على التفاتتنا ومحبتنا.. و السلام.

خليفة رسول الله على ديار الأندلس

هشام الثالث[346].

ومن تمّ فقد بلغت الحضارة الإسلامية ذروتها في الأندلس في النصف الثاني من القرن العاشر الميلادي، وأصبحت قرطبة أعظم مدن العالم، والفضل الكبير يرجع بلا شك إلى العرب المسلمين في الأندلس الذين قدّموا خلاصة الفكر الإسلامي في العلوم والآداب والفلسفة إلى أوروبا، فضلا عن تعريف الغرب بكثير من تراث اليونان القديم الذي زال من الوجود ولم يبق إلا في التراجم العربية.

3 - ابن عربي -أنموذجا- :

أ-تعريف ابن عربي:

- **نسبه:**

هو أبو بكر محمد بن علي بن محمد بن أحمد بن عبد الله الطائي الحاتمي محي الدين، يرقى نسبه إلى عبد الله بن حاتم الطائي، وكان يُعرف بابن عربي في المغرب، واصطلح أهل المشرق على ذكره بغير ألف ولام فرقا بينه وبين

[346] روائع وطرائف، إبراهيم النعمة، بغداد، الموصل، مكتبة الحدباء 1990: 30-31، (معابر الحضارة الإسلامية إلى أوروبا:33.)

قاضي القضاة أبي بكر محمد بن العربي المعافري [347]، ويعرف بالحاتمي وبابن عربي والشيخ الأكبر وابن أفلاطون[348].

- **مولده ونشأته:** وُلد ابن عربي سنة 560ه[349]، وكان ذلك يوم الاثنين السابع عشر من رمضان في مدينة مرسية بالأندلس، وهي مدينة أنشأها المسلمون في عهد بني أميّة[350].

نشأ في أسرة نبيلة زاهدة، وكان له خالان هما: يحي بن يغان وأبو مسلم الخولاني اللذين سلكا طريق الزهد، يقول ابن عربي: "كان بعض أخوالي منهم (أي من الزهاد الذين تركوا الدنيا عن قدرة) [351]، والشيء نفسه يرويه عن أمه وأبيه.

في هذا الجوّ الثقافي –الزهدي– تربّى ونشأ ابن عربي ولما بلغ من العمر ثمان سنوات انتقل إلى اشبيلية، وفيها تزوج بمريم بنت محمد بن عبدون بن عبد الرحمن البجائي[352].

- **أسباب تصوفه:**

---

[347] رسائل ابن عربي، محي الدين بن عربي، تح: قاسم محمد عباس، حسين محمد عجيل، منشورات المجمع الثقافي، أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة، ط1، 1998: 13.

[348] آليات التواصل عند ابن عربي، صالح بوعرتة، إشراف: محمد بوعمامة، جامعة الحاج لخضر، باتنة، 2008-2009: 03 (ماجيستير).

[349] الشعر الأندلسي في عصر الموحدين، فوزي عيسى، دار الوفاء، الإسكندرية، ط1، 2007: 306.

[350] ابن عربي حياته ومذهبه، آشين بلاثيوس: 03.

[351] المرجع السابق: 06.

[352] ينظر: شجرة الكون، ابن عربي، تحقيق: رياض العبد الله، ط2، 1985 : 19

نشأ ابن عربي في عائلة زاهدة جعلته يذهب مذهبها، فكان خاله أبو مسلم الخولاني يُعذّب جسده ويسهر ليلهُ، قال ابن عربي: "كان يقوم الليل فإذا أدركه العياء ضرب رجليه بقضبان كانت عنده ويقول لرجليه: أنتما أحق بالضرب من دابتي"[353]، وممّا جعل ابن عربي يسلك طريق القوم، ظروف ووقائع عاناها منها:

ــ رؤيا رأتها زوجته جعلته يعدل عن طريق الضلال والتشتت إلى طريق الهدى ومسلك الصالحين[354].

ــ مرضه بالحمى الذي أفقده الوعي بذاته وما صاحبه من رؤى وأحلام نقلته من الحياة إلى الموت، ومحاولة بعض القوم أذيّته، قبل أن يتدخل رجل صالح لإنقاذه، قال ابن عربي: "مرضت فغشي عليّ في مرضي بحيث كنت معدوداً في الموتى، فرأيت قوما كريهي المنظر يريدون أذيتي، ورأيت شخصا جميلا طيّب الرائحة شديداً يُدافعهم عني حتى قهرهم، فقلت له من أنت؟ فقال: أنا سورة (يس) أدفع عنك..."[355]

---

[353] الفتوحات المكية، ابن عربي، تقديم: نواف الجراح، دار صابر، بيروت، ط1، 2004: 3-23.

[354] آليات التواصل عند ابن عربي، صالح بورتة: 04.

[355] الفتوحات المكية، ابن عربي: 4-648.

ــ موت أبيه الذي صحبته عدّة علامات منها تنبؤات أبيه بيوم موته وساعته، ومنها أنه غشيه نور كبير أضاء ما حوله، وفي نظر ابن عربي أنها كرامات أولياء الله الصالحين، ولابد عليه أن يسلك هذه الطريقة ويتّبع منهج أصحابها.

ب-أسفـــــــاره:

يُعدّ ابن عربي من أكبر المشايخ الصوفية، كما جاء ذكره: "الشيخ محي الدين بن عربي البحر الزاخر في المعارف الإلهية " [356]، بحيث له العديد من التآليف والرسائل التي "بلغت 400 كتاب، ذكر منها بروكلمان الألماني في فهرسة الكتب العربية 156 كتابا، وذكر أماكن وجودها، وأكثرها في التصوف وبعضها في الجفر وأسرار الحروف"[357].

ومن شعره الذي يستدل به على أسلوبه في النظم الصوفي قوله:

"نفسي الفداءُ لبيضٍ خُرّدٍ عُرُبٍ ** لعِبْنَ بي عند لَثْم الرُّكنِ والحَجَرِ

ما تَستدِلّ إذا ما تِهتَ خَلَفَهُم ** إلاّ بِريحِهِمُ من طِيّبِ الأثَـــــرِ

غازلتُ مِنْ غَزلِي مِنهُنَّ واحدةً ** حسناءَ ليس لها أختٌ مِنَ البشرِ[358]

---

[356] تاريخ فلاسفة الإسلام، محمد لطفي جمعة، إصدارات العوادي، د.ط، د.س: 396.

[357] المرجع نفسه: 399.

[358] ترجمان الأشواق، محي الدين بن عربي/ دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1981، 152.

وعليه فقد عرَفت آثاره امتدادا في العالم، ولم تقتصر على منطقة معينة، ولعلّ سبب ذيوع أفكاره وآرائه يعود إلى جهوده التنظيرية، وكثرة مؤلفاته في التصوّف، يقول المقرّي في ذلك:" وأمّا كتبه ومصنّفاته فالبحار الزّواخر، التي لجواهرها وكثرتها لا يُعرف لها أوّل ولا آخر، ما وضع الواضعون مثلها، وإنّما خصّ الله سبحانه بمعرفة قدرها أهلها... ووقفت على إجازة كتبها للملك المعظم، فقال في آخرها: وأجزته أيضا أن يروي عنّي مصنّفاتي، ومن جملتها كذا وكذا، حتى عدّا نيّفا وأربعمائة مصنّف"[359]

ومن أشهر مؤلفاته:

" فصوص الحكم"، "الفتوحات المكية"، و"مفاتيح الغيب"، والتعريفات"، و"مواقع النجوم"، و" مطالع أهلّة الأسرار والعلوم"، و"الديوان الكبير" وهو مجموع شعره، و" ترجمان الأشواق"، وغيرها[360]

ومن مؤلفاته كتاب "تفسير القرآن" الذي يقول فيه صاحب كتاب فوات الوفيات:" أنّه يبلغ خمسا وتسعين مجلدا وربما هذا هو كتاب التفسير الكبير الذي

---

[359] نفح الطيب، المقرّي: 177/2

[360] مقدمة ديوان ترجمان الأشواق، تقديم عبد الرحمن المصطاوي، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط 1، 2005: 12

بلغ فيه سورة الكهف عند الآية: " وعلّمناه من لدنا علما"، ثم توفي قبل أن يتمه.[361]

1 - سياحته في المغرب الإسلامي:

بدأ ابن عربي السياحة في بلاد إفريقيا، خارج حدود الأندلس، وله من العمر حوال ثلاثين سنة، وعلى الرغم من أن شهرته الصوفية كانت تسبقه، إلا أن نيّته من السفر انحصرت بلقاء رجال عصره، رغبة في استكمال جوانب التعليم[362].

وتميزت هذه الرحلة بكثرة السياحة: في فاس، بجاية، تونس ثم العودة إلى إشبيلية ومرسية والسفر ثانية هكذا، وابن عربي في كل هذه التنقلات مشغول الروح بالمبشرات والرؤى ومشغول اليد بالتدوين وكتابة الكتب[363].

2-سفره إلى المشرق الإسلامي:

بدأت مرحلة مهمة في حياة ابن عربي في عام 597هـ؛ عندما بلغ السابعة والثلاثين من العمر، إذ إنه سيرتحل نهائيا باتجاه المشرق الإسلامي إثر رؤيا رآها[364].

---

[361] الإسهامات العلمية للحضارة الإسلامية العلماء المسلمون إسهاماتهم العلمية ومؤلفاتهم، عبد العني بن محمد، دار البحّار للطباعة والنشر، عمّان، الأردن،دط، دس:101

[362] المعراج، محي الدين ابن عربي، تح: سعاد الحكيم، د ندرة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 1988م: 13.

[363] المرجع السابق: 13.

وتمتاز هذه الرحلة من حياته بالخصوبة من كل نواحيها، بلتقائه مع بشخصيات صوفية بارزة، فقد التقى شهاب الدّين السهروردي في بغداد عام 608ه، كما تلقى حفاوة وتكريم من ملوك وسلاطين زمانه، فها هو "كيكاوس الأول" يخرج بنفسه لاستقباله...وكلمته هي المسموعة عند "الملك الظاهر" صاحب مدينة حلب ابن صلاح الدين الأيوبي[365].

3-استقراره في دمشق: (620هـ/638هـ)

عندما بلغ ابن عربي الستين من العمر كانت شهرته قد عمّت العالم الإسلامي، وتنافس الملوك في استقطابه، وتزاحم العامة على بابه، ولكن حالته الصحية ألزمته الاستقرار، فلم يجد أطيب من دمشق: يقول: "إن قدرت أن تسكن الشام فافعل، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم ثبت عنه أنه قال: عليكم بالشام، فإنه خيرة الله في أرضه وإليها يجتبي خيرته من عباده"[366].

ونَعِمَ ابن عربي في دمشق بأنواع من التكريم، حيث نزل في ضيافة القاضي محي الدين بن الزكي الذي اشتهر بصحبته لصلاح الدين الأيوبي، وخدمه شمس الدين الخولي، قاضي قضاة المالكية، وكان الملك

---

[364] ابن عربي حياته ومذهبه، أيسين بلاثيوس، ترجمة عبد الرحمن بداوي، وكالة المطبوعات، الكويت، دار القلم، بيروت، لبنان، د.ط، 1979م: 53.

[365] المعراج، ابن عربي: 14.

[366] الفتوحات المكية، ابن عربي، 469/4.

الأشرف ابن الملك العادل يحضر دروسه، كما تلقى عنه الإجازة لرواية جميع كتبه عام 632هـ.[367]

وهكذا عاش ابن عربي حياة التنقل والتكريم، ورحل عن الدنيا عام 638هـ[368] تشيّعه أنواع الحفاوات.

ج- أثر ابن عربي في الفكر الأوروبي:

1/ رايموندو لوليو Raymundo Lullo:

يعدّ الراهب الاسباني لوليو رايموندو من أكبر المتأثرين بفكر ابن عربي، الذي كان يتقن العربية ولا شك أنه اطلع على ما كتبه محي الدين ابن عربي[369]، وهذا ما يشير إليه الطاهر أحمد مكي في كتابه دراسات أندلسية في الأدب والتاريخ والفلسفة في قوله: "وفضلا عن هذه المشابهات، وهي دلائل واضحة على علاقات مباشرة أو غير مباشرة بين محي الدين ابن عربي و رايموندو لوليو، استطعت أن أميز بعض الرموز، وهي دليل واضح على وجود علاقة خاصة، مباشرة وشخصية بين المذهبين وتؤكد فيما أرى أن لوليو يجب أن

---

[367] ينظر المعراج، ابن عربي: 14.
[368] المرجع نفسه: 14.
[369] ينظر الحضارة العربية الإسلامية بين التأثر والتأثير، الربعي بن سلامة، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون، الجزائر، د.ط، 2009: 153.

يكون قد انتفع إلى حد بعيد بكتب ابن عربي، وهو ما يفسر لنا جانبا كبيرا من زهده ومن فلسفته"[370].

ومن تمّ فقد نجد أن لوليو اعتمد على كتب المسلمين وخاصة كتب ابن عربي بصورة واضحة وجلية، ومن بين أعماله المنظومة واحدة تحمل عنوان "أسماء الله المائة"[371]، يذكر المؤلف في مقدمتها: "يقول المسلمون: إنَّ في القرآن 99 اسما، وهي أسماء الله الحسنى، ومن يعرف الاسم المائة يعرف كل شيء ولهذا ألفت هذا الكتاب: "أسماء الله المائة"، وأعرفها كلها...وفي كل اسم من أسماء الله نظمنا عشرة أبيات من الشعر، ويمكن أن ترتل في الكنيسة على نغمات المزامير، فلهذا السبب نظمناها، لأن المسلمين يرتلون القرآن في مساجدهم"[372].

وهذا قد يوحي بتأثر لوليو بالإسلام، حيث نجده يقتبس أمثلة من التقوى والورع الإسلامي، يهدف من خلالها إلى إدخال بعضها أو جلّها في المسيحية، وفضلا عن هذا نلاحظ تأثير المذاهب الإسلامية في أفكاره، "فهو يتحدث عن

---

[370] دراسات أندلسية في الأدب والتاريخ والفلسفة، الطاهر أحمد مكي، دار المعارف، القاهرة/ ط 3، 1987 : 167.
[371] المرجع السابق: 167.
[372] المرجع نفسه: 169.

أسماء الله الحسنى كما لو كانت تعويذة لها فضل وتأثير، وهو شيء إسلامي تماما"[373].

وتتجلى كذلك في كتابات لوليو عطف ظاهر للمسلمين تولد _من غير شك_ من معاناته قراءة الكتب العربية[374]، كما كان يرمي إلى نقل بعض الأفكار الإسلامية إلى النصرانية وهو يمتدح في المسلمين إخلاصهم لدينهم وأراد أن تتلى أسماء الله الحسنى في الكنائس، كما نجده يذكر في كتابه: "بلانكرنا Blanquerna" أنه ألف " كتاب الصديق المحبوب" " El libro del amigo y del amado" على طريقة الصوفية ولا يبعد أن يكون قد ألفه على نهج "ترجمان الأشواق" لابن عربي[375].

أما ذكره لفضائل أسماء الله الحسنى، فقد سار على خطى ابن عربي لأن لهذا الأخير مؤلفات عدة شعرا ونثرا تتصل بأسماء الله الحسنى، وفي الجزء الأخير من مؤلفه "الفتوحات المكية" توجد رسالة مطولة كتبها شعرا ونثرا[376].

ومن تمّ فإن رايموندو لوليو الفيلسوف والمتصوف الإسباني حيث يُطلق عليه "ريبيرا خوليان" في مؤلفه "الأصول العربية لفلسفة رايموندو لوليو"

---

[373] المرجع السابق: 167

[374] ينظر: الحضارة العربية الإسلامية بين التأثر والتأثير، الربعي بن سلامة: 153.

[375] المرجع السابق: 153.

[376] ينظر: دراسات أندلسية في الأدب والتاريخ والفلسفة، الطاهر أحمد مكي: 168.

بالصوفي النصراني"، فقد تأثر إلى حد بعيد بأفكار ابن عربي الصوفية، كما حاول أن ينسج على منوالها ويدخل بعضها إلى المسيحية.

2/ دانتي أليجبيري Dante Alighieri (الكوميديا الإلهية):

لقد استطاع دانتي في قصيدته الخالدة "الكوميديا الإلهية" أن ينقل بعض الصور والأوصاف للآخرة عن ابن عربي، حيث "استطاع أن يجد في مؤلفات ابن عربي وفي "الفتوحات" على وجه التخصيص الإطار العام لقصيدته، يعني التخيّل الشعري لرحلة مليئة بالأسرار إلى مناطق الآخرة وما تنطوي عليه من معانٍ رمزية"[377]؛ أي أنّه وجد في هذا المؤلف الشكل العام لرحلة مليئة بالأسرار نحو الجنة والنار وصورتها الرمزية، ثم يضيف قائلا: "كما وجد فيها المستويات الهندسية لبناء الجحيم والفردوس، واللمحات العامة التي تزين مناظر هذه الدراما السامية، والتصوير العيني المجسم لحياة الأبرار السعيدة المجيدة والرؤية الطوباوية للنور الإلهي وما يصاحبها من وجد ونجلٍ"[378].

ومن تمّ لا يحق إنكار فضل "ابن عربي" المفكر الشاعر على العمل العبقري الذي قام به دانتي أليجبيري في قصيدته الخالدة التي بلغ بها غاية المجد.

---

[377] ابن عربي حياته ومذهبه، أيسين بلاثيوس: 99.
[378] المرجع السابق: 99.

وللتوضيح فإن كلا من دانتي وابن عربي يجعل الرحلة رمزا لحياة البشر، ويريان أن الهدف الأخير للحياة والسعادة الكبرى في الوجود إنما هي رؤية الله[379].

ولا تأتي هذه الرؤية بغير هدي من اللاهوت، إذ إن العقل العادي لا يصل بالإنسان إلا إلى المراحل الأولى من هذا الطريق الطويل، وهذه المراحل في الحقيقة ما هي إلا رمز الفضائل اللاهوتية فلا يدرك بغير إشراق إلهي[380].

وممّا يقوله آسين بلاتيوس في هذا الشأن: "إن قدراً عظيماً من المعالم المكانية وتفاصيلها والمشاهد وأوصاف بعض حلقات "الكوميديا الإلهية" لا نجد لها شبها ظاهرا في شتى الروايات التي وصلتنا عن قصة "المعراج" المحمدي ولكننا نجد سوابقها ونماذج مماثلة لها في بعض الأحيان في أصول أخرى من الأدب الإسلامي...وقد نجدها في مذهب اللاهوتيين والفلاسفة والصوفية بصورة خاصة، فقد اجتهد أولئك جميعا في ترتيب هذه النصوص القرآنية والنبوية وتفسيرها وتعليلها"[381].

[379] تاريخ الفكر الأندلسي، آنخل جنثالث بالنثيا، ترجمة: حسين مؤنس، تقديم: سليمان العطار، المركز القومي للترجمة، القاهرة، د.ط ، 2011: 638.

[380] ينظر: المرجع نفسه: 639.

[381] المرجع السابق: 639.

ويشير أسين من خلال وقوفه الطويل عند الصوفي المرسي محي الدين بن عربي إلى أنّه "من الممكن أن نجد عنده الأصول التي اقتبس دانتي منها هيئة جحيمه ورتبه على مثالها"[382].

ومن ثمّ إن كلا الرجلين –دانتي وابن عربي– يميلان إلى استخدام ما يعرف "بالهيئة الدائرية" أو صورة قبة الملك فأطباق الجحيم، ومسار النجوم، ودوائر الوردة الصوفية وجماعات الملائكة التي تحف بمطلع النور الإلهي، والدوائر الثلاث التي ترمز إلى الثالوث (عند دانتي)، كل هذه وصفها الشاعر الفلورنسي كما وصفها الصوفي المرسي، بل إن ابن عربي رسم هذه الدوائر بيده، وما يدعو إلى العجب أن الرسوم التي خططها الدانتيون بعد قرون كثيرة ليمثلوا بها أوصاف "الكوميديا الإلهية" تتفق تمام الاتفاق مع ما أودعه ابن عربي في فتوحاته من رسوم.[383]

ويشير أسين إلى مواضع أخرى بين المواقع التي تحدث عنها دانتي وتلك التي وصفها ابن عربي، ومثال ذلك: "الأعراف" التي ورد ذكرها في القرآن الكريم، وعرّفها المفسرون الإسلاميون بأنها ظلّ بين الجنة والنار، فقد أخذ دانتي منها فكرة "الليمبو"، وجهنم بوصفها الإسلامي المعروف بـــ"الإنفرنو"،

---

[382] المرجع نفسه: 641.
[383] المرجع السابق: 641.

"inferno" (الجحيم) عند دانتي، و"الصراط" الإسلامي هو الأصل الذي أخذ عنه دانتي "البورجاتوريو" " purgatorio"، (المطهر) الذي نجده في الكوميديا الإلهية[384].

وأخيرا فإنّ هذا الحشد الحافل بالأفكار والتخيلات والرموز والأوصاف عند الرجلين يدل بوضوح على أن دانتي نظر إلى الأصول الإسلامية، وعلى وجه الخصوص مؤلفات محي الدين بن عربي وحكاها، كما نرى أن دانتي تتلمذ على ابن عربي تلمذة واضحة في النهج والأسلوب والطريقة، بل وفي الصور والأمثال والاصطلاحات والأساليب الفنية.

ومن ناحية أخرى نرى أن ذهن دانتي كان متفتحا متقبلا لشتى التأثيرات الفكرية والأدبية والثقافة الإسلامية لما كانت عليه هذه الثقافة من الانتشار والذيوع في أوروبا في القرن الثالث عشر، وما خلفّته من جسور للتواصل بين الثقافتين الأوروبية والعربية الإسلامية.

---

[384] ينظر: المرجع نفسه: 641.



خاتمــة

لقد توصلت في ختام هذا البحث إلى نتائج يمكن حصرها كالآتي:

- تنوع الفنون الأدبية ورقيّها بفضل الإطلاع على تراث الأمم المجاورة، فازدهر الشعر والنثر، وتطور فن الرواية والقصة، وظهر الأدب الشعبي: سِيرا وحكايات وأشعارا وأزجالا وفكاهات، وتطورت فنون الموسيقى إلى أبعد مدى.
- انعكاس الميراث الحضاري للمسلمين القائم على أساس من الدين والأخلاق والأدب على الأمم المجاورة حيث سمحت هذه الحضارة للشعوب الأخرى بالمشاركة في بنائها الحضاري.
- إسهام عملية الترجمة في تفعيل التواصل بين دول المتوسط، مما سهّل على العناصر الأجنبية اعتناق الإسلام دينا، واتخاذ العربية لسانا، وأخيرا بناء الأساس العلمي والفكري لهذه الحضارة.
- قدرة التواصل على خلق سبل مختلفة ومتعددة أسهمت في تفعيل الحركة الفكرية والثقافية، أهمها طرق التجارة التي خلقت نوعا من المبادلات الفكرية وكذلك الحروب، وإنشاء المراكز العلمية والجامعات.

- دور المناظرات في تنشيط عملية التواصل، حيث أسهمت هذه المناظرات في إثراء بعض الفنون والميادين، كالمسائل الفقهية والأدبية والنقدية من خلال تلك الآراء التي كانت تصدر عن أصحابها أثناء السجال والجدال، وبخاصة المناظرات التي جرت بين المسيحيين والمسلمين
- إسهام الرحلات العلمية في خلق جوّ من التواصل المعرفي بين المغرب الإسلامي بما فيه الأندلس مع دول أوروبا المسيحية، كونها وسيلة من الوسائل المهمة في إثراء الحركة الفكرية والأدبية، وذلك بفضل التنقل والترحال إلى البلدان بغية الحصول على مصادر العلم، والجلوس بين أيدي الفقهاء والعلماء والنّهل من معارفهم.

هذه بعض النتائج التي استخلصتها من خلال هذا البحث، وإن موضوع التواصل المعرفي والحضاري يبقى من الموضوعات الجديرة بالبحث والاهتمام.

وأعتقد أن هذا العمل ما هو إلا محاولة أولية وخطوة مبدئية لِوُلُوج عالم البحث راجيا من المولى عزّ وجلّ أن يوفّقنا إن شاء الله ، وأن يسدد خطانا، فإن كان عملي موفقا فمن الله عزّ وجل، وإن أخطأت أو قصرت فمن نفسي.

والله الموفق.

قائمة المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع

- القرآن الكريم برواية حفص

1/المصادر والمراجع:

- الأحكام السلطانية، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983م
- إحياء علوم الدين، أبي حامد أحمد بن محمد الغزالي، دار الكتب العلمية، بيروت، ج2، ط1، 1986
- أدب الرحلات المغربية والأندلسية، مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرن السابع والثامن الهجريين، دراسة تحليلية مقارنة عواطف محمد، يوسف نواب، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، دط، 1996
- أدب الرحلة، حسين نصار، دار نوبار للطباعة مع الشركة المصرية العالمية للنشر، القاهرة، ط1، 1991
- أساس البلاغة، الزمخشري، دار صابر، بيروت، ط1، 1992
- أساسيات اللغة رومان جاكوبسون، موريس هالة، ت سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي، أبوظبي، ط1، 2008

- أعز ما يطلب لابن تومرت، تقديم وتحقيق عمار طالبي، نشر المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985
- الإمامة عند بن تومرت، دراسة مقارنة مع الإمامية الاثني عشرية، علي الإدريسي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، د.ط. د.س
- أوروبا والإسلام، عبد الحليم محمود، منشورات المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، د ط، د س
- البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ابن عذاري المراكشي، تح: ليفي بروفنسال وكولان، دار الثقافة، بيروت، لبنان،ج1، ط3، 1983
- التأثير العربي في أوروبا العصور الوسطى، ديونيسيون آجيوس، ريتشارد هيتشكوك، ترجمة د. قاسم عبده قاسم، عين الدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط2000/1
- تاريخ إفريقيا الشمالية، شارل أندري جوليان، ترجمة محمد مزالي، والبشير بن سلامة، الدار التونسية للنشر، تونس، و، ش، و،ن،ت، الجزائر،1978

- تاريخ الفكر الأندلسي، آنخل جنثالث بالنثيا، ترجمة: حسين مؤنس، تقديم: سليمان العطار، المركز القومي للترجمة، القاهرة، د.ط ، 2011
- تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، فخري خليل النجار، دار الصفاء للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 2009
- تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الزركشي، تح: محمّد ماضو، المكتبة العتيقة، تونس، ط2، 1966
- التاريخ السياسي لدول المغرب الإسلامي لخضر سيفر، الأمل للدراسات، الجزائر عاصمة الثقافة العربية، 2007، ج1
- تاريخ العصور الوسطى الأوروبية وحضارتها، جوزيف نسيم يوسف، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر والتوزيع، الإسكندرية، د,ط، 1983
- تاريخ حضارة المغرب والأندلس في عهدي المرابطين والموحدين، عبد الحميد حسين وأحمد السامرائي، دار شموع للثقافة، ليبيا، ط1، 2002
- تاريخ دولتي المرابطين والموحدين، محمود السيد، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، د.ط. 1999

- تاريخ فلاسفة الإسلام، محمد لطفي جمعة، إصدارات العوادي، د.ط، د.س
- تراث الإسلام، ايرنست باركر، عربه علي أحمد عيسى، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1936
- تهذيب اللغة، أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري، تح. عبد السلام سرحان، الدار المصرية للنشر والترجمة، طبعة 1967
- التواصل الاجتماعي من منظور نفسي واجتماعي وثقافي، عدنان يوسف العتوم، عالم الكتب الحديثة، الأردن،ط1، 2011
- التواصل الحضاري والحفاظ على الذاتية، سعد الدين سيد صالح، دار الصحوة، القاهرة، ط1، 1994
- الاتصال الفعّال في إدارة الأعمال، خضير كاظم حمود، دار الصفاء للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 2010
- الجزائر بوابة التاريخ (ماقبل التاريخ إلى 1962م)، عمار عمورة، دار المعرفة، الجزائر، ج1، د.س

- حركة الموحدين بالمغرب، روجي لي تورنو، ترجمة أمين طيبي، الدار العربية للكتاب، تونس، 1982
- حضارة العرب في الأندلس، بروفنسال .أ.ليفي، ترجمة: ذوقان قرقوط، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، د ط، د س.
- حضارة أوروبا في العصور الوسطى، محمد سعيد عمران ، دار النهضة العربية، للطباعة والنشر، بيروت، د,ط، 1991
- حضارة ونظم أوروبا في العصور الوسطى، سعيد عبد الفتاح عاشور، دار النهضة العربية للطباعة، بيروت، د.س، د.ط
- الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية ل: مؤلف مجهول من القرن الرابع عشر ميلادي، تحقيق أ.س. علوش، ج.ف.ب.هويكنز، الرباط، 1936م
- الحضارة العربية الإسلامية بين التأثر والتأثير، الربعي بن سلامة، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون، الجزائر، د.ط، 2009
- الخصائص، ابن جني، تح : محمد علي النجار، دار الكتاب العربي، بيروت،ط2، 1983

- خِطط المقريزي، تقي الدين أبي العبّاس أحمد بن علي المقريزي، دار صابر، بيروت، لبنان، ط ج، م.
- دائرة المعارف، بطرس البستاني، مطبعة المعارف، بيروت، مج 8، د ط، 1884
- دراسات أندلسية في الأدب والتاريخ والفلسفة، الطاهر أحمد مكي، دار المعارف، القاهرة/ ط 3، 1987
- الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع، ناصر عبد الرزاق الموافي، مكتبة الوفاء للطباعة، القاهرة، ط1، 1995
- رسائل ابن عربي، محي الدين بن عربي، تح: قاسم محمد عباس، حسين محمد عجيل، منشورات المجمع الثقافي، أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة، ط1، 1998
- روائع وطرائف، إبراهيم النعمة، بغداد، الموصل، مكتبة الحدباء 1990
- روض القرطاس، علي بن عبد الله بن أبي زرع الفاسي، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، د ط، 1972
- الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، محمود حمدي زقزوق، مطابع الدوحة الحديثة، د ط، 1983

- سير أعلام النبلاء، شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط 11، 1996
- سيكولوجية الإنسان ومهارته، سناء محمد سليمان، عالم الكتب، القاهرة، ط1، 2014
- الشعر الأندلسي في عصر الموحدين، فوزي عيسى، دار الوفاء، الإسكندرية، ط1، 2007
- الصحاح: تاج اللغة وصحاح العربية، اسماعيل بن حماد الجوهري، تح: محمد محمد تامر وآخرون، دار الحديث، القاهرة، د ط، 2009
- صفحات مشرقة من التاريخ الإسلامي، دولة الموحدين ، محمد الصلابي، مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة، ج 2، ط1، 2007
- عبد المؤمن بن علي موحد بلاد المغرب، صالح بن قربة، وزارة الثقافة الجزائر العاصمة، الثقافة العربية،د.ط، 2007
- العبر، عبد الرحمن بن خلدون، تح: خليل شحاذة، دار الفكر، بيروت، لبنان، 2001

- ابن عربي حياته ومذهبه، آشين بلاثيوس، ترجمة عبد الرحمن بداوي، وكالة المطبوعات، الكويت، دار القلم، بيروت، لبنان، د.ط، 1979م
- عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس، محمد عبد الله عنان، القسم الثاني عصر الموحدين، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ط1، 1964
- العصور الوسطى الأوروبية، رؤية في المصادر والنصوص التاريخية وعمليات التعليق والترجمة، محمد عبد الشافي المغربي، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر الإسكندرية، ط1، 2004م,
- العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين العرب والافرنج خلال الحروب الصليبية، زكي النقاش، دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر، د ط، 1946
- الفتوحات المكية، ابن عربي، تقديم: نواف الجراح، دار صابر، بيروت، ط1، 2004
- الفكر السلفي عند الشيعة الاثنا عشرية،علي حسين الجابري، ، منشورات عويدات، بيروت، 1977

- القاموس المحيط، الفيروزآبادي ، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط 3، 2009 (طبعة منقحة مفهرسة)
- قانون التأويل، ابن عربي، تحقيق: محمد السليماني، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 1990
- قراءة في تاريخ وحضارة أوروبا العصور الوسطى، أشرف صالح محمد سيّد، شركة الكتاب العربي الالكتروني، لبنان، ط1، 2008
- الكافي معجم عربي حديث، محمد الباشا، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 1992
- كتاب أخبار المهدي بن تومرت، تأليف أبو بكر بن علي الصنهاجي المكنى بالبيدق، تحقيق عبد الحميد حاجيات، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر،ط.2، 1986
- لسان العرب. ابن منظور ، تح: عامر أحمد حيدر، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2003

- لواقح الأنوار المقدسية في مناقب العلماء والصوفية (الطبقات الكبرى)، الإمام أبي المواهب عبد الوهاب الشعراني، تح: أحمد عبد الرحيم السايح و توفيق علي وهبة ، مكتبة الثقافة الدينية – القاهرة، ج1، طبعة 2005
- محاضرات في تاريخ أوروبا القرون الوسطى، طاعة سعد، دار قرطبة، الجزائر، ط1، 2012
- مروج الذهب ومعادن الجوهر، أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي، راجعه كمال حسن مرعي، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، ط 5، 2005.
- معالم تاريخ المغرب والأندلس، حسين مؤنس، دار الرشاد، القاهرة، ط2، 1997
- المعجب في تلخيص أخبار المغرب، عبد الواحد المراكشي، تح: محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي، القاهرة، 1949
- معجم البلدان، ياقوت الحموي شهاب الدين، دار صابر بيروت، ج 2، د ط، 1977

- المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، إبراهيم مصطفى ومجموعة من المؤلفين
- المعجمية العربية، ابن حويلي الأخضر، دار هومه، الجزائر، ط 1، 2010
- المقتبس من كتاب الأنساب في معرفة الأصحاب، أبو بكر الصنهاجي(البيدق)، تح: عبد الوهاب بن منصور، دار المنصور،الرباط، 1971
- مقدمة في التطور اللغوي، روبرت أوينس، ت: مصطفى محمد قاسم، دار الفكر، الأردن، ط 1، 2010
- المقدمة، ابن خلدون، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، طبعة جديدة ومنقحة، 2007
- المن بالإمامة على المستضعفين، عبد الملك بن صاحب الصلاة، تحقيق عبد الهادي تازي، ط1، دار الأندلس، بيروت، 1964: 51–275
- المناظرات اللغوية والأدبية في الحضارة العربية الإسلامية، رحيم جبر أحمد الحسناوي، ، دار أسامة، عمان، الأردن، ط1، 1999

- المناظرة في الأندلس، آمنة بن منصور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2012
- مهارات الاتصال، جلوب حسين، دار كنوز المعرفة العلمية، عمان، الأردن، ط1، 2010
- المهدي بن تومرت، حياته وآراؤه وثورته الفكرية والاجتماعية وأثره بالمغرب، عبد المجيد النجار، دار الغرب الإسلامي، ط1 . 1973
- الموسوعة التاريخية الحديثة، تاريخ العصر الوسيط في أوروبة، نور الدين حاطوم، ج1 (من أواخر العصر الروماني إلى القرن الثاني عشر)، د.ط، 1982
- نظم الجمان في أخبار الزمان، ابن القطان، تحقيق: مكي محمود علي، دار الغرب الإسلامي، تونس، ط1، د.س
- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، أحمد بن محمد التلمساني المقري، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، القاهرة، ط1، 1949
- النور السافر عن أخبار القرن العاشر، عبد القادر بن عبد الله العيد روس، تح: أحمد حالو وآخرون، دار صابر، بيروت، ج1، ط.1، 2001

- وفيات الأعيان، ابن خلكان، تح: إحسان عباس، دار صابر، بيروت،1972

2/الكتب باللغة الأجنبية:

- The Renaissance. Haskins charles homes. Library of congress catalog card. Printed in the united states of America
- A.S Atiyah Crusade, commerse and culture (Bloomington, Indiana/Oxford, 1962),

3/ الدوريات :

- ملتقى الدراسات الأندلسية، عبد الحميد الهرامة، تيارات الفكر في المغرب والأندلس، جامعة عبد الملك السعدي، تطوان، 1993

4/ الرسائل الجامعية:

- اللغة والممارسة الدينية، جفال فتيحة، إشراف مزوار لخضر،قسم علم الاجتماع، جامعة تلمسان.2009/2008. (ماجستير).
- الموروث الفكري في أدب الرحلة الجزائري "نماذج من رحلات القرن العشرين"، يسمينة شرابي، إشراف د/ علي لطرش، جامعة أكلي محند أولحاج، البويرة، 2012 (ماجيستير).

- آليات التواصل عند ابن عربي، صالح بوعرتة، إشراف: محمد بوعمامة، جامعة الحاج لخضر، باتنة، 2008–2009 (ماجيستير).

5/ المواقع الإلكترونية:

- موقع ديوان العرب منبر حرّ للثقافة والفكر، مقال : مفهوم التواصل: النماذج والمنظورات، جميل حمداوي.(ديسمبر)2006www.diwanalarb.com

فهرس الموضوعات

الصفحة	فهرس الموضوعات

ملخص:

هذا البحث يوضح آلية التواصل بين دول المتوسط، ويخص بالذكر التواصل المعرفي (الأدبي والفكري) بين أوروبا والمغرب الإسلامي في العصر الوسيط، ولن نجد مثلا أروع من الحضارة الإسلامية في الأندلس التي كانت جسرا للتواصل بين الثقافتين العربية والغربية، ومن نتائج هذا البحث هو الكشف عن أسرار التواصل المعرفي وخباياه ودوره في زيادة النشاط العلمي بصورة سريعة ومتنامية في شتى فروع المعرفة، و بخاصة في المجال الفكري الذي انعكس إيجابا على الحياة الأوروبية فيما بعد، فأثمرت الرحلات العلمية، وظهرت آلاف الكتب والمصنفات في مختلف التخصصات العلمية.

الكلمات المفتاحية:
التواصل، المعرفة، أوروبا، المغرب الإسلامي

Résumé :
Cette recherche illustre le mécanisme de la communication entre les pays méditerranéens notamment au (littéraire, intellectuelle) entre l'Europe et le Maghreb Islamique au moyen âge.
A le meilleur exemple en est: La Civilization Islamique en Espagne (Andalous) qui faisait un pont (bridage) de communication entre les deux cultures : arabe et Européen. Et parmis les résultats de ces recherches est la découverte des secrets de la communication cognitive et son rôle sur l'activité scientifique de manière croissante dans plusieurs domaines du savoir, surtout le domaine intellectuel qui avait un reflet positif sur la vie Européen et par la suite l'apparence des livres et découvertes scientifiques dans toute les spécialités.

Les mots clés : communication, Savoir, Europe, Maghreb Islamique.

Abstract :
Thisresearch illustrates the mechanism of communication between the Mediterraneancountries specially the cognitive communication (Literary and Intellectual) between Europe and the Islamic Maghreb in the middle ages.
And the best example for that is the Islamic civilization in Spain (Andalus) which was a bridge of communication between the two cultures: Arabic and European. Among the consequences of this research is discovering the secrets of the cognitive communication and its role on developing and increasing the scientific activity in a fast and growing way in different fields of knowledge especially the cognitive one,whichwas reflected positively on the European life later. As a result, the appearance of thousands of books and scientific trips in various scientific specialities.

Keywords: communication, Knowledge, Europe, Islamic Maghreb

ملخص البحث:

عنوان الأطروحة: (التواصل المعرفي (الأدبي والفكري) بين أوروبا والمغرب الإسلامي في القرنين 6و7هـ ـ ابن عربي أنموذجا ـ)

ـ الطالب: سيدأحمد نايري

يعالج هذا البحث موضوع التواصل المعرفي الذي يُعد تبادلا للمعارف والعلوم، ـــ تحاورا وتعارفا وتلاقحا ـــ، والتواصل المعرفي بين الشعوب من الظواهر الإيجابية المهمّة التي كان لها دورٌ فاعل في تطور الفكر الإنساني وإشاعة الثقافة العالمية، وهو يمثل التأثر والتأثير بين الحضارات.

وعندما نتحدث عن التواصل المعرفي هنا نخص بالذّكر التواصل الأدبي والفكري بين أوروبا والمغرب الإسلامي في العصر الوسيط، ولن نجد مثالا أروع من الحضارة الإسلامية في الأندلس، التي كانت جسرا للتواصل بين الثقافتين العربية والغربية، مع العلم أنّ طبيعة هذه الحضارة كانت بوتقة انصهرت فيها عقليات شتى وثمرات ثقافات متباينة، فكانت مشتركا وسيطا بين أوروبا والمغرب الإسلامي.

وهذا ما شدّ انتباهي، وجعلني أفكر في البحث عن أسرار هذا التواصل وخباياه، ودوره في زيادة النشاط العلمي بصورة سريعة ومتنامية في شتى فروع المعرفة، وبخاصة في المجال الفكري الذي انعكس إيجابا على الحياة الأوروبية فيما بعد، فأثمرت الرحلات العلمية وامتلأت الأندلس بآلاف الكتب والمصنفات في مختلف التخصصات العلمية.

ومن هنا استقر لديَّ أن تكون وجهتي صوب موضوع: **"التواصل المعرفي (الأدبي والفكري) بين أوروبا والمغرب الإسلامي في القرنين السادس والسابع الهجريين –ابن عربي أنموذجا–** "، وذلك قصد إبراز التميز والنضج الذي أنتجه هذا التواصل بين دول المتوسط، وتألق بعض العلماء الأندلسيين في العلوم، إبداعا ونقدا، وهي ظاهرة تدل على نمو الشخصية العلمية والأندلسية والمغربية وتحققها، وفي المقابل هناك تأثر بالإنتاج الفكري الإسلامي في أوروبا، اتباعا واستثمارا وإبداعا.

وما شجعني أيضا على المضي في هذا الاتجاه هو ما اطلعت عليه من خلال الجهود المبذولة في هذا المجال، ومن بين هذه الدراسات ما قام به محمد فاروق أحمد الإمام في كتابه "معابر الحضارة الإسلامية إلى أوروبا"،

وسعيد عبد الفتاح عاشور في كتابه "حضارة ونظم أوروبا في العصور الوسطى"، ورحيم جبر أحمد الحسناوي في كتابه "المناظرات اللغوية والأدبية في الحضارة العربية الإسلامية"...الخ

ومن خلال كل هذا حاولت الإجابة عن بعض التساؤلات، منها:

-ما المقصود بالتواصل المعرفي؟ وما هي سبله وتجلياته؟

-كيف أسهمت الترجمة في تفعيل هذا التواصل؟ وماهو أثر الإنتاج الفكري في النهضة الأوروبية؟

وللإجابة عن هذه التساؤلات، فقد ارتأيت استخدام المنهج الوصفي التحليلي، وكذا المنهج التاريخي في تتبع بعض الظواهر التاريخية والاجتماعية.

وقد قسّمت هذا العمل إلى مدخل وثلاثة فصول وخاتمة:

تناولتُ في المدخل مفهوم التواصل لغة واصطلاحا، ثم حدّدتُ التواصل من منظور تاريخي واجتماعي ولساني وديني، كما تطرّقت إلى مجالات التواصل وأشكاله، وأتبعته بدور التواصل الحضاري وأهميته بين الشعوب.

وتحدّثتُ في الفصل الأول عن الإرهاصات الأولى لنشأة المجتمع الأوروبي المسيحي خلال القرون الوسطى، مشيرا إلى ظاهرة التفاوت الحضاري بين مختلف أنحاء أوروبا، والتغيرات الاقتصادية ال مهمة التي ألمّت بالمجتمع الأوروبي في العصور الوسطى، وأثر تدفق التيارات الجديدة التي تحمل العلم والمعرفة من الشرق، هذا فضلا عمّا في هذه النظرة من تنكّر صريح لما حدث في العصور الوسطى من حركات استهدفت إحياء الحضارة القديمة وابتكار عناصر حضارية جديدة ميّزت تلك العصور وأعطتها طابعاً حضارياً خاصاً متبعا ذلك بعرض لمحة تاريخية عن الإمبراطورية الرومانية وعوامل سقوطها، ثم حددتُ طبيعة النظام الإقطاعي، والنظام الطبقي في المجتمع الأوروبي، ودور الكنيسة في العصر الوسيط، كما وقفتُ على أهم مظاهر النهضة الفكرية خلال القرن الثاني عشر الميلادي، حيث خلّف هذا القرن في أوروبا تراثا فكريا هائلا، لا يستهان به، وقد شمل جميع المجالات العلمية والفكرية من لغة وآداب وفلسفة وعلوم مختلفة، وتآليف متنوعة في شتى الميادين، وتشييد أولى الجامعات في أوروبا آنذاك، ومن خلال هذا الرقي والتطور الفكري استطاعت أوروبا الاطلاع على تراث الأمم المجاورة لها،

والتواصل معها أخذا وعطاء، ومن بين الحضارات التي تواصلت معها أوروبا في العصور الوسطى هي الحضارة العربية الإسلامية التي بلغت أوج عطائها، وشكّلت العصر الذهبي في إحياء العلوم والمعارف وتجديدها وابتكار ما عجز عنه غيرهم.

أما الفصل الثاني، فقد خصّصته لدراسة واقع المغرب الإسلامي حيث قامت فيه دول عظيمة وقوية لها تاريخ مجيد، ودور كبير في تاريخ العالم الإسلامي كله، ونخص بالذكر فترة حكم الموحدين في بلاد المغرب حيث أصبحت هذه الأخيرة مركزا للحضارة الزاهرة، وانتشار الأمن والهدوء، وهذا ما ساعد على الرقي في جميع المجالات وبخاصة منها المجال العلمي والفكري، كما عرّفتُ فيه ابن تومرت وعبد المؤمن بن علي، ثم تطرقتُ إلى تأسيس الدولة الموحدية وأهم نظمها السياسية والاجتماعية، وكذا الأسس الفكرية التي قامت عليها الدولة مبينا دور "محمّد بن تومرت" ومنهجه في تأسيس الدولة القائم على مبدأ ديني، حيث حرص ابن تومرت على أن يسلك طريق النصح والإرشاد، والاتصال بالأمراء وولاة الأمر في المدن والعواصم، يعظهم

ويرشدهم ويبين لهم مواقع الانحراف والفساد، ويحملهم المسؤولية في ذلك، ويحثهم على القيام بالأمر الواجب من محاربة المنكر ونشر المعروف.

ومن خلال ذلك، توصلت إلى أن ابن تومرت انتهج سياسة واضحة المعالم للقضاء على النظام القائم، وبناء نظام جديد وكانت خطته تسير وفق سبل ثلاث: حملة على المرابطين، إقامة تنظيم سياسي، تعبئة نفسية للأنصار. وقد اعتمد ابن تومرت في تعبئته لأنصاره على:

أ-غرس الثقة في نفوسهم وبأنّهم على حق.

ب-الثقة بالإمام وإقناعهم بأنّه المهدي المعصوم من خلال ظهوره بمظهر الاستقامة والتدين والإخلاص.

ومهمة حزب ابن تومرت إذا، مهمة **مزدوجة: سياسية وتربوية**، تتمثل المهمة التربوية في جعل سلوك الموحدين قدوة لغيرهم، وفي تبليغ رسالة ابن تومرت للناس، وتتمثل المهمة السياسية في مقاطعة المفسدين (المرابطين) أوّلا، وفي جهادهم ثانيا، وكان دائما يوجه ابن تومرت ما ينبغي القيام به في المهمة التربوية القائمة على الدين والأخلاق.

إن الأساس العقدي، أو النظري ضروري لأية حركة سياسية ولكنه غير كاف لبلوغ هذه الحركة، ومراميها وغايتها إن لم تنشئ لنفسها قواعد تنظيمية، تكفل اتخاذ القرار السياسي الملائم، وضمان تنفيذه بفعالية، وحماية نتائجه من أي انحراف أو ادعاء، وكذلك كانت الحال بالنسبة إلى ابن تومرت، الذي انتهى إلى إنشاء حركة الموحدين ووضع لها أسساً تنظيمية وحدد لها أهدافها، وقد نظم أنصاره تنظيما وظيفيا هرميا، وبفضله استطاع خلفه تأسيس أكبر دولة إسلامية في المغرب الإسلامي ألا وهي "الدولة الموحدية" حيث شهدت تنظيما محكما في أسسها وقواعدها السياسية، واهتمت اهتماما بالغا من قبل مؤسسيها وقادتها بالجوانب الفكرية والعلمية والعقدية.

وأما الفصل الثالث، فقد حاولت فيه الربط بين دول المتوسط من خلال عملية التواصل الحضاري، ممّا جعل الأندلس جسرا للتواصل بين الثقافتين العربية والغربية، وهو التواصل المعرفي ذاته الذي كان ركيزة الحضارة الأندلسية، حيث كانت هذه الأ خيرة بوتقة انصهرت فيها أفكار شتى و ثقافات متباينة، وكانت مشتركا وسيطا بين أوربا والمغرب الإسلامي ، كما أوردتُ في هذه الدراسة سبل التواصل الحضاري من طرق تجارة وحروب ومراكز علمية

وجامعات، ثم تجليات التواصل المتمثلة في المناظرات بنوعيها المناظرة الحقيقية والمتخيلة حيث أسهمت في خدمة اللغة وتطورها، و مجالسها كانت رحابا لبحث علومها وتقدمها، كما أسهمت أيضا في إثراء الفكر العربي الإسلامي من خلال تقاطع الاتجاهات المختلفة وما نتج عنه من فكر حضاري راق، مع العلم أن هذا النضج الفكري ولّد القدرة على الخلق والإبداع والتواصل بعيدا عن الجمود والتقليد، ثم تحدثت عن الرحلات العلمية، إذ تعد الرحلة إحدى السبل التي اتخذها الإنسان بغية طلب العلم والتتلمذ على يد العلماء والفقهاء ومجالستهم والاستفادة منهم، بل إن هناك "من العلوم الإسلامية ما يرتبط بالرحلة ارتباطا عضويا لا انفصام له ولذلك كان الجغرافيون المسلمون رحالة، وهذا كله راجع إلى إدراكهم دور العلم في التقدم والتحرر من عبودية الجهل.

ثم تطرقت كذلك في هذا الفصل إلى حياة ابن عربي انطلاقا من مولده ونسبه ونشأته في طلب العلم، ثم ذكرت أسباب تصوفه، وأهم أسفاره ، محاولا بذلك إبراز أثره في الفكر الأوروبي وبخاصة أثره ريموندو لوليو ودانتي، مع توضيح امتداد آثاره بين دول المتوسط.

وأنهيت البحث بخاتمة تضمّنت أهم النتائج المتوصل إليها.

- تنوع الفنون الأدبية ورقيّها بفضل الإطلاع على تراث الأمم المجاورة، فازدهر الشعر والنثر، وتطور فن الرواية والقصة، وظهر الأدب الشعبي: سِيرا وحكايات وأشعارا وأزجالا وفكاهات، وتطورت فنون الموسيقى إلى أبعد مدى.
- انعكاس الميراث الحضاري للمسلمين القائم على أساس من الدين والأخلاق والأدب على الأمم المجاورة حيث سمحت هذه الحضارة للشعوب الأخرى بالمشاركة في بنائها الحضاري.
- إسهام عملية الترجمة في تفعيل التواصل بين دول المتوسط، مما سهّل على العناصر الأجنبية اعتناق الإسلام دينا، واتخاذ العربية لسانا، وأخيرا بناء الأساس العلمي والفكري لهذه الحضارة.
- قدرة التواصل على خلق سبل مختلفة ومتعددة أسهمت في تفعيل الحركة الفكرية والثقافية، أهمها طرق التجارة التي خلقت نوعا من المبادلات الفكرية وكذلك الحروب، وإنشاء المراكز العلمية والجامعات.
- دور المناظرات في تنشيط عملية التواصل، حيث أسهمت هذه المناظرات في إثراء بعض الفنون والميادين، كالمسائل الفقهية والأدبية والنقدية من خلال

تلك الآراء التي كانت تصدر عن أصحابها أثناء السجال والجدال، وبخاصة المناظرات التي جرت بين المسيحيين والمسلمين

- إسهام الرحلات العلمية في خلق جوّ من التواصل المعرفي بين المغرب الإسلامي بما فيه الأندلس مع دول أوروبا المسيحية، كونها وسيلة من الوسائل المهمة في إثراء الحركة الفكرية والأدبية، وذلك بفضل التنقل والترحال إلى البلدان بغية الحصول على مصادر العلم، والجلوس بين أيدي الفقهاء والعلماء والنّهل من معارفهم.

هذه بعض النتائج التي استخلصتها من خلال هذا البحث، وإن موضوع التواصل المعرفي والحضاري يبقى من الموضوعات الجديرة بالبحث والاهتمام.

introduction:

In the name of God, which is done by His good deeds, praise be to God and prayers and peace be upon the most honorable creation Mohammed and his family and companions, and after: Knowledge communication is the exchange of knowledge and science. It is the exchange of knowledge between peoples. It is an important positive phenomenon that has played an active role in the development of human thought and the spread of world culture. It represents the influence and influence among civilizations. When we talk about the communication of knowledge here, we mention the literary and intellectual communication between Europe and the Islamic Maghreb in the Middle Ages, and we will find no better example of the Islamic civilization in Andalusia, which was a bridge between the Arab and Western cultures, knowing that the nature of this civilization was a melting pot of various mindsets And the fruits of different cultures, was a common mediator between Europe and the Islamic Maghreb. And this has attracted my attention, and made me think of the search for the secrets of this communication and its mysteries, and its role in increasing scientific activity quickly and growing in various branches of knowledge, especially in the intellectual field, which reflected positively on European life later, and scientific trips were full of

Andalusia thousands of books and works in Different scientific disciplines. From this point, I decided to focus on the theme: "Literary and intellectual communication between Europe and the Islamic Maghreb in the 6th and 7th centuries AH – Ibn Arabi model" - in order to highlight the excellence and maturity that this Mediterranean communication produced, and the brilliance of some Andalusian scholars In science, creativity and criticism, a phenomenon that shows the growth of the scientific personality, Andalusia and Moroccan and achieved, and in return there is influenced by the production of Islamic intellectual in Europe, followed and investment and creativity. What encouraged me to continue in this direction is what I have seen through the efforts in this area. Among these studies is the work of Muhammad Farouk Ahmad Al-Imam in his book "The Paths of Islamic Civilization to Europe" and Said Abdel Fattah Ashour in his book " Europe in the Middle Ages ", and Rahim Jabr Ahmed Hasnawi in his book" literary and literary debates in the Arab Islamic civilization "... etc Through all this I tried to answer some of the questions, including: - What is cognitive communication? What are its ways and manifestations? - How did the translation contribute to the activation of this communication? What is the impact of intellectual production in the European Renaissance? To answer these questions, I saw the

use of the analytical descriptive approach, as well as the historical approach to tracing some historical and social phenomena. This work has been divided into an introduction, three chapters and a conclusion: In the introduction, it tackled the concept of communication, language and terminology, and then defined the communication from a historical, social, linguistic and religious perspective. It also touched upon the fields of communication and its forms, followed by the role of cultural communication and its importance among peoples. In the first chapter, I spoke about the first instigations of the development of the European Christian community during the Middle Ages, by presenting a historical overview of the Roman Empire and its fall factors, and then the nature of the feudal system, the class system in European society and the role of the Church in the Middle Ages. During the twelfth century AD. The second chapter, devoted to the study of the reality of the Islamic Maghreb, was known by Ibn Tomrat and Abdel Momen Ben Ali, and then dealt with the establishment of the Almohad state and its most important political and social systems, as well as the intellectual foundations on which the state was based. As for the third chapter, it tried to connect the Mediterranean countries through the process of cultural communication, where they listed the ways of cultural communication from the ways of trade, wars, scientific

centers and universities, and then manifestations of communication represented in debates and scientific trips, followed by the biography of Ibn Arabi - To extend its effects among the Mediterranean countries. The research was concluded with the most important findings. In the latter, I ask Allaah to grant you success and reward. Tlemcen in the day: 25 April 2018.

Sidahmed Nairi

Conclusion:

After the completion of this work entitled "Communication of knowledge (literary and intellectual) between Europe and the Islamic Maghreb in the sixth and seventh century AH - an Arab model -", which tried to highlight the role of knowledge communication in the provision of great services and great benefits for people, and in various fields of science, In conclusion, I would like briefly to mention some of the conclusions I have reached during my treatment of this subject, which I have summarized in the following points:

- **The diversity of the literary arts and their literature through the knowledge of the heritage of neighboring nations, the flourishing of poetry and prose, the development of the art of the novel and the story, and the emergence of folk literature: Sera, stories, poems, idols and mummies, and developed the art of music to the fullest extent.**

- **Reflecting the cultural heritage of Muslims based on religion, ethics and literature on the neighboring nations where this civilization allowed other peoples to participate in its cultural construction.**

- **The contribution of the translation process to the activation of communication between the Mediterranean countries, which made it easier for foreign elements to embrace Islam, take the Arabic to Sana, and finally build the scientific and intellectual basis of this civilization.**

- **The ability of communication to create different and multiple ways that contributed to the activation of intellectual and cultural movement, the most important of which are trade methods that have created a kind of**

intellectual exchanges as well as wars, and the establishment of scientific centers and universities.

• The role of debates in activating the process of communication, as these debates contributed to the enrichment of some arts and fields, such as jurisprudential, literary and monetary issues through the views that were issued by the owners during the debate and debate, especially debates between Christians and Muslims

• The contribution of scientific trips to the creation of an atmosphere of knowledge communication between the Islamic Maghreb, including Andalusia and the European Christian countries, as one of the most important and pioneering means of enriching the intellectual and literary movement, thanks to mobility and migration to countries in order to obtain sources of science and sit in the hands of jurists and scholars And their knowledge.

These are some of the conclusions I have drawn from this research, and the subject of knowledge and cultural communication remains a topic worthy of research and attention.

I think that this work is only a preliminary attempt and a preliminary step to enter the world of research, wishing the Almighty to grant us to future research, God willing, and pay our steps, if my work is successful, God Almighty, and if I sinned or shortened it myself.

God bless